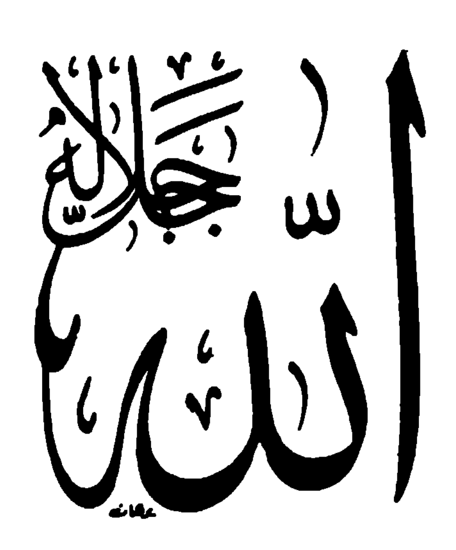
سعيد حوى

دراسات منهجية هادفة
حول الأصول الثلاثة:
الله، الرسول، الإسلام



دراسات منهجية هادفة
حول الأصول الثلاثة:
الله، الرسول، الإسلام



بقلم
سعيد حوى



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

مطبعة الديواني - بغداد
هاتف : ٨٨٧٦١٩٧

البحث الأول :

عن

الله جل جلاله

« إذا قرأت هذا البحث فسترى أن أعظم حقيقة يثبتها العلم والعقل بما لا يقبل الجدل هي وجود الله عز وجل ، وأنه لا أحد في هذا الكون يعرف الله حق المعرفة غير المسلمين » .

مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب

الله جل جلاله

في السوق كتب كثيرة تدلك على وجود الله عز وجل ، ولكن الكثيرين من الذين يكتبون في هذا الموضوع لا يبنون البناء الصحيح على ما يقتضيه الإيمان بالله من إيمان برسله وإيمان بوحيه ودينه وشريعته ، ومن ثم كان هذا الكتاب سداً لهذه الثغرة إذ كان فيه تدليل ووضع لمحل الإيمان بالله في محله الصحيح في الحياة البشرية .

وكثيرون من الذين كتبوا في موضوع الألوهية إما أنهم اقتصروا على التدليل على الوجود ، ولم يصلوا إلى التعريف على الصفات والأسماء ، وإما أنهم تكلموا عن الصفات والأسماء ولم يدللوا على الوجود ، فكان في كل من العملين ثغرة حاول هذا الكتاب أن يسدها .

وكثيرون من الذين تكلموا في الدليل إما أنهم فاتهم الاستفادة من معطيات عصرنا ، أو أنهم تكلموا ضمن معطيات علوم عصرنا دون أن يربطوا ذلك بمعطيات العصور ، وكانت تلك ثغرة كذلك حاول هذا الكتاب أن يسدها .

وكثيرون من الذين تكلموا في هذه الشؤون فاتتهم الدقة العلمية أو الدقة في التعبير ، فشطح بهم القلم نحو كلمة لا تليق أو كلمة ليست صحيحة أو كلمة فيها كفر أو إثم ، وذلك تناقض مع المضمون ، فبينما يقرأ الإنسان لتحقيق الإيمان إذا به يقع في الكفر . وكان هذا الكتاب بريئاً من ذلك بفضل الله تعالى .

ومن ثم فإن هذا الكتاب وإن كان جديده قليلاً ، فإن ميزاته هـذه ذات وزن كبير عند أهل الإنصاف ، وندر من عرض لموضوع الإيمان العقلي بالله من بدايته إلى نهايته .

بدايته التي تحدد الطريق للمعرفة العقلية ، ثم تبني هذه المعرفـة من خلال الدليل ، ثم تصل إلى ما يوصل اليه العقل من تعرف على صفات الله وأسمائـه ، ثم تبرهن على أن ما يصل اليه العقل هو نفسـه الذي يوصل إلى الوحي الصحيح ، ثم تبين الأخطاء التي وقع فيها البشر في هذا الشأن . إن كتاباً فعل هذا كله ربما يكون نادراً ، وتلك ميزة أخرى لهذا الكتاب .

ثم إن هذا الكتاب عرض من وجهة نظر إسلامية محضة لهـذه القضيـة ، وبقلم إسلامي كذلك ، فرفع بذلك وصاية الأقلام الخاطئة أو المنحرفة أو الكافرة عن المسلم المثقف الذي يرغب أن يقرأ في هـــذا الموضوع ، فكانت تلك ميزة أخرى من ميزات هذا الكتاب .



لقد هدف كثير من المؤلفين إلى قضية جزئية في مؤلفـاتهم لهـا صلة في هذا الموضوع ، وأردنا في هذا الكتاب أن نحقق مجموعة ما قصد اليه المؤلفون ، وكان ذلك ميزة أخرى لهذا الكتاب المختصر .

ولقد حاولنا أن نقرأ كل ما استطعنا الوصول اليه من كتب تحدثت عن أي جانب من جوانب هذا الموضوع ، واستفدنا من الكثير منها ، استفدنا من كتاب (قصة الإيمان) لنديم الجسر ، ومن كتاب (الله) للعقاد ، ومن كتاب (العلم يدعو للإيمان) لكريسي موريسون ، ومن كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) لمجموعـــة من العلماء ، ومن كتاب (الله والعلم الحديث) لعبد الرزاق نوفل ، ومن كتاب (مصير البشرية) لـ (ليكونت دي نوي) ومن كتـاب (مع الله في السماء)

لأحمد زكي ، ومن كتاب (العقائد) للأستاذ البنا ، ومن كتاب (الوجود الحق) للدكتور حسن هويدى ، ومن رسائل كثيرة أخرى وكتب كثيرة أخرى ، منها القديم ومنها الحديث ..

وأقول ههنا بعض ما كنت قلته في طبعة سابقة من أنني كنت ألقيت الأبحاث الأولى عن الذات الإلهية على بعض الطلبة الجامعيين ، وما كان يخطر ببالي وقتذاك أن هذا سيكون جزءاً من كتاب سيخرج باسمي، لذلك لم أحاول أن أعزو كل كلمة قلتها أو نقلتها إلى مراجعها ثم كان أن حدث أمر النشر وأنا بعيد عن بلدي ومكتبتي ، فأرسلت البحث على ما هو عليه دون أن أقوم بعملية تمييز لما نقلته ... وههنا أقول : إنني في أكثر الأحوال عزوت النقل إلى اسم صاحبه وبتتبع بسيط يستطيع الإنسان أن يرجع في كل كلمة إلى محلها من كتاب .

ولكن كانت كتابتي لهذه المقدمة وأنا في نفس الوضع الذي كنت فيه يوم أرسلت بهذا الكتاب إلى الطبع فكان عذري اليوم كعذري بالأمس غير أن القارىء يستطيع أن يطمئن إلى الدقة العلمية في كل ما ورد في الكتاب والحمد لله .

ولقد سريت في هذا الكتاب مقرراً عقيدة الحق التي يجتمع عليها المسلمون تاركاً البحوث التي حدث فيها خلاف بين الفرق الإسلامية ، لأن لتلك البحوث ولتقرير الحق في شأن ما اختلف فيه منها محلاً آخر ، فمن طبيعة هذه السلسلة كلها أنها لا تحتمل مثل هذه البحوث إلا أن لنا كلاماً في هذه الأمور في سلسلة أخرى إن شاء الله تعالى .



أقول هذا الكلام كله في مقدمة الطبعة الثالثة لهذا الكتاب ، مع أنني لم

أذكر كلمة واحدة عن ميزات هذا الكتاب في الطبعتين السابقتين ، أقول هذا شكراً له على توفيقه إذ هداني لذلك ورزق هذا الكتاب وغيره حسن القبول من المسلمين ، وأرجو أن يكون ذلك علامة على قبوله جل جلاله إنه هو المراد والمقصود .



سرنا في البحث بأن حددنا الطريق إلى معرفة الذات الإلهية ، وهي آثار الله التي تدل عليه ، وبينا أن هذه الآثار التي تدل عليه : الكون ، والقرآن ، والمعجزات ، والكرامات وبينا أننا في هذا البحث نريد أن نعرض الظواهر الكونية فقط ، وكيف أنها تدلنا على الله عزوجل في البحث الثاني عن الرسول (ص) سنتعرض للقرآن وللمعجزات وبذلك يكتمل الكلام عن الظواهر التي تدل على الله . وإنما اقتصرنا في هذا البحث على ذكر الأدلة الكونية فقط كي لا نضطر لأن نعيد كلاماً مرتين ؛ لأن الإعجاز القرآني كما يدل على الله يدل على أن محمداً رسول الله ، وإن المعجزات والكرامات كما تدل على الله فإنها تدل على أن محمداً رسول الله . وفي هذا البحث سنرى أن الظواهر الكونية وحدها كافية للدلالة على الله ، فكيف إذا اجتمع معها غيرها ؟ ومن خلال هذه القضية ندرك أن المسلم وحده هو الذي يمتلك التعليل الشامل والحق لكل شيء ، على خلاف الآخرين الذين يستطيعون التعليل لبعض الأشياء ويقفون عاجزين أمام غيرها ، ومع ذلك يملؤهم الغرور أنهم عرفوا بعض قوانين هذا الكون .

ثم إنه بعد المقدمة التي حددنا فيها الطريق إلى معرفة الله وذكرنا فيها التصورات الخاطئة لهذا الطريق والمعاني التي تحول دون الإيمان عرضنا تسع ظواهر كونية كنماذج على الظواهر الكونية الكثيرة التي تدلنا على الله بما لا يقبل جدلاً عند المنصف ، ثم بينا كيف أن الظواهر الكونية تدلنا على أسماء

الله ، وكيف أن أسماءه تدلنا على ذاته ، فعرفنا بذلك الله عز وجل من خلال النظر في هذا الكون ، ثم برهنا بعد ذلك على أن ما أوصلنا اليه النظر العقلي في الكون من صفات الله وأسمائه هو الذي قرره القرآن ، وهو يعرفنا على أسماء وصفات الله عزوجل ، فكان ذلك وحده آية على أن هذا الإسلام هو دين الله عزوجل ، وعندما وصلنا إلى هذا أحببنا أن نقدم مقارنة بين العقيدة الإسلامية في موضوع الألوهية وبين غيرها مما يتبين منه سموها بما لا يقاس معها أو عليها غيرها من عقائد موجودة أو موروثة أو معروفة إن في عالم الأديان او في اتجاهات الفلاسفة ، وهنا رأينا أن ننقل هذه المقارنة عن كلام العقاد كشهادة من إنسان مستوعب لثقافة الحاضر والماضي وكإنسان له شهرة في عالم الفكر والفلسفة والأدب ، وذلك لشعورنا أن ذلك أقوى في مخاطبة المثقف المعاصر في الأوضاع والظروف التي صدر فيها الكتاب . فإن المؤلف لم يكن معروفا ، وبالتالي فإن كلام العقاد في قضية فيها طابع المقارنة الشاملة سيكون أقوى في تحقيق غرض المؤلف وهو الإقناع في الدعوة إلى الإيمان ، وهذا وحده كاف لأن يجعلنا نتجاوز بعض الأمور ، فنقلنا كلام العقاد من كتابه (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) في مقارنة العقيدة الإسلامية في باب الألوهية مع غيرها مما يظهر أنها هي وحدها الحق وغيرها باطل ، وبذلك تم الكتاب ما بين مقدمة وعرض ظواهر وذكر دلالات الظواهر ومقارنات بعد ذلك فاستكمل الكتاب من المعاني ما تفرق في كثير غيره .



وإذا كان قانون السببية هو أهم مبادىء العقل ، وإذا كان هذا المبدأ هو الأساس الذى يقوم عليه الإيمان العقلي والمعرفة العقلية لله . فقد جعلنا له فصلا خاصاً جعلناه بين الظواهر ودلالات الظواهر ، وإذا كان التوحيد هو أهم ما خرقته أهواء البشر في باب معرفة الله فقد خصصناه كذلك بفصل جعلناه تالياً

لظاهرة الوحدة . وإذا كان وهم الطبيعة قد سيطر على كثير من العقول القاصرة فقد خصصناها بكلام في نفس المكان من هذا الكتاب . ومن ثم فقد نقلنـــا في هذا المكان فيما بين الظواهر ودلالاتها كلاماً للدكتور حسن هويدي والشيخ سعيد النورسي نقطع فيه دابر الخرق السفيه لمبدأ السببية العقلي أو دابر الخرق لقضية التوحيد أو نهتك فيه حجاب الوهم حول قضية الطبيعة . لقد كان كلامهما رائعاً في هذه الأمور فنقلناه انطلاقاً من قاعدتنا أنه حيثما وجدنا إحسانــاً عند أحد يخدم تسلسل أبحاث هذه السلسلة أو يخدم مواضيعها فإننا ننقله مستغنين بذلك أن نكتب نحن فيه .

نقول : إن هذا البحث كاف في تحقيق غرضه في موضوع التعريف على الله من حل وبناء الإيمان العقلي ، لكن موضوع الألوهية يحتاج إلى كثير من البحوث والكتابة فيه من خلال عقلية إيجابية تنقب في التاريخ طولاً وعرضاً دارسة كل ما أخرجته الحفريات زماناً ومكاناً لتبرهن على أن التوحيد هو الأصل ، وإنما طرأ عليه ما طرأ بسبب من الأهواء والتحريف .

كما أننا بحاجة إلى أن نضع كل نقطة فوق حرفها في عملية إقامة الحجة على كل فكر كافر في هذا العالم وفي كل جانب منـــه من خلال حوار شامل : قالوا ونقول .

نذكر هذا – وذلك كنموذجية على بعض احتياجاتنا في هذا الموضوع والتدليل على أن هذا الكتاب يأخذ محله ولكن لا يغني عن غيره مما نحتاجه في عصرنا وفي حواراتنا الشاملة مع غيرنا .

قد يكون الكثير مما قلت ههنا يصلح أن يكون في مقدمة الطبعة الأولى ، إلا أنني آثرت في الطبعة الأولى لهذه السلسلة أن أدخل في المقصود من أبحاثها

أن تطبع هذه السلسلة باسمي الشخصي ، فعلتها لمن يستطيع إنجاز ذلك على بعد كبير بيني وبينه في المكان فتمت الطباعة دون أن أستطيع أن أقوم بعملية التصحيح . ومع الجهد الكبير الذي بذله الناشر جزاه الله خيراً فإن أخطاء كثيرة وقعت في الطباعة . فكان هذا النقص في الطبعة الأولى نقصاً إضافياً على القصور الأصلي الذي ذكرنا أسبابه ، وتتابعت مشاكل ومشاغل وأحداث حالت بيني وبين أن أبذل أي جهد لتصحيح المسار ، حتى كانت نهاية السنة الخامسة لاعتقالي حيث أتيحت لي فرصة للنظر ، فقررت أن أبذل جهداً ما بقدر المستطاع لجعل هذه السلسلة بشكل أجود . ولم يكن بالمستطاع بسبب وضعي أن أبذل جهداً إلا في حدود تصحيح بعض الأخطاء المطبعية أو في تغيير بعض الألفاظ رأيت أن فيها تساهلاً في التعبير أو في حدود عزو حديث إلى مخرّجه أو تبيان درجة قوته بحسب المستطاع والمتيسر من مراجع ، أو في حدود توضيح نقطة غامضة أو ذكر زيادات وجدت أن بعض الأمور تقتضيها . هذا مع شيء من التعليقات الضرورية ومراعاة بعض القضايا الفنيـة .

وكنت أتمنى في نفسي أن يبذل في كتاب (الرسول) أو في كتاب (الإسلام) جهد يشبه ما بذل في كتاب (الله جل جلاله) في طبعته الثانية من مراجعة النقول في مواطنها إلى غير ذلك من تحقيقـات . ولكن أنى يتاح لي ذلك وأنا في سجني . وكنت فكرت كثيراً بعد أن أصبحت السلسلة تطبع باسمي أن أعيد كتابة بعض المواضيع التي نقلتها عن كتب اخرى بأسلوبي الشخصي وعلى طريقتي في العرض ، لكني وجدت أن ذلك سيكلفني وقتاً وجهداً وقد لا أبلغ في حسن الأداء والعرض ما بلغه من نقلت عنهم ، عدا عن كون النقل كان مقصوداً في كثير من المواطن لأسباب متعددة قد أشير إلى بعضها بمناسباتها أثناء هذه الطبعة ، ثم إنني منذ الأصل كنت قد قررت تجاوز أي نقد يوجه لي بسبب ذلك كما ذكرت في مقدمة الطبعة الأولى . ثم إنني كنت قد بدأت العمل في المشروع كله على أساس الاستفادة من جهود كل من كتب . ولذلك فقد أبقيت ما نقلته في محله ، وأرجو أن أكون

أفلحت في جمله في محله جزءاً من كل متكامل يخدم في الموضوع الذي من أجله وجدت هذه السلسلة ، وهو وإن كان موجوداً في كتب مطبوعة إلا أنه في هذه السلسلة يخدم فيما يحقق أغراضها ، وإن جوهرة واحدة تصلح أن تكون في عقد وتكون في محلها جميلة ، ويمكن أن تكون في عقد آخر وتعطي في محلها الجديد لناظرها بهاء ومتعة من نوع آخر . وأرجو أن يؤجر أصحاب هذه الكتابات من المسلمين على كتاباتهم أجرين : أجراً بسبب كتاباتهم الأصلية ، وأجراً بسبب ما أدخلته من كتاباتهم في هذه السلسلة .

والله أسأل أن يتقبل .

١٩ صفر ١٣٩٨ هـ

٢٩ كانون الثاني ١٩٧٨ م

(الله جل جلاله)

معرفة الله هي المرتكز الذي يرتكز عليه الاسلام كله ، وبدون هذه المعرفة يكون كل عمل في الاسلام أو للاسلام غير ذي قيمة حقيقية ، إذ أنه في هذه الحالة يكون فاقداً روحه ، وما قيمة عمل لا روح فيه ؟.

ولكن كيف نعرف الله ؟ وما هو الطريق إلى هذه المعرفة ؟ إن الجواب على هذا شيء لا بد منه ؛ حيث إننا إذا لم نعرف الطريق لن نصل إلى الغاية التي نطلبها .

١ — تصور الكافرين للطريق .

إن ناساً في القديم وفي الحديث أنكروا وجود الله لأنهم لم يدركوه بحواسهم، متصورين أن هذا هو الطريق إليه ، ورموا المؤمنين به بأنهم: واهمون ، وضالون، وخرافيون، ومشوشون، وغير علميين، إلى آخر السلسلة الطويلة من السب والهزء والسخرية والازدراء التي يوجهها الكافرون بالله إلى المؤمنين لأنهم آمنوا بالله عن غير طريق الحواس .

إن أمثال هؤلاء الذين يقولون : إنهم لا يؤمنون إلا بما أدركته حواسهم يكذبهم واقعهم المادي الذي يعيشونه ، فهم مثلاً يؤمنون بالجاذبية وقوانينها ولم يشاهدوها ، بل رأوا آثارها، ويؤمنون بالعقل ولم يروه بل رأوا آثاره ،ويؤمنون بالمغناطيسية ، وقد شاهدوا فقط انجذاب الحديد إلى الحديد دون رؤية الجاذب ، ويؤمنون بوجود الألكترون والنيترون ولم يشاهدوا ألكتروناً أو نيتروناً ،فواقع أمرهم يدل على أنهم آمنوا بأشياء لم تدركها حواسهم ، ولكن آثارها هي التي دلتهم عليها وهم فيها على يقين لا يخالطه شك ، وهذا يعني بوضوح أن كثيراً من حقائق الوجود يؤمن بها هؤلاء لإحساسهم بآثارها دون إحساسهم بها ذاتها .

والعقل وليس الحواس هو الذي عرّفهم عليها ، وإن كانت الحواس هي الآلة التي أعطت العقل أدوات الحكم حتى أصدر حكمه ، لكنه لولا العقل ما صدر حكم ولما كانت معرفة . بل الحقيقة أن الحواس تعطينا أحياناً صوراً كثيرة وهمية ولكننا نعرف الحقيقة بواسطة العقل وحده: فالعصا المغمورة بالماء تبدو مكسورة، والخطوط المتوازية التي تفصل بينها خطوط تبدو غير متوازية ، والأرقام البيضاء تبدو أكبر من الأرقام السوداء ، وشعورنا دائماً أننا نسير ورؤوسنا إلى أعلى سواء كنا في القطب الشمالي أو الجنوبي أو على خط الاستواء ، فمثل هذه الصور تبين لنا بوضوح أن الحواس لولا العقل لأعطتنا أخطاء بدلاً من حقائق ، ولولا العقل لم تكن لنا أي معرفة .

فهل كان هؤلاء على صواب عند ما حصروا المعرفة كلها بالحواس ؟ وهل كانوا منطقيين مع أنفسهم عند ما رفضوا الإيمان بالله لأنه لم تدركه حواسهم ، مع أنهم بالآثار وحدها آمنوا بكل الحقائق التي لم يشاهدوها والتي تشكل أكبر الحقائق التي عرفها الانسان .

اختراع الجهاز الذي يكتشف الحقيقة هل كانت الحقيقة غير موجودة ؟ وبالتالي فهل كان إنكاركم لها قبل اكتشاف الجهاز علمياً ؟ ثم هل كل حقيقة علمية تكشفها الحواس أو الجهاز ؟ أليست الحقائق الرياضية وكثير من الحقائق الكونية لا طريق اليها إلا العقل والتأمل وربط النتائج بالمقدمات ؟ ثم أليست كل قضية تحتاج إلى جهاز خاص يناسبها ؟ أولا يكفيكم جهاز العقل للوصول إلى الله ؟ ولو أنه كانت لكم قلوب لحدثناكم عن القلب ذاك ، وكيف أن أهل القلوب عندهم الجهاز الذي يعرف الله حق المعرفة معرفة ذوقية لاتعدلها أي معرفة أخرى. ولكن قلوبكم هذه ميتة ، ولذلك فإننا لا نطمع في أن تفهموا كلامنا في شأنها ، ولا نقصد بالقلوب هنا القلوب التي تعرفونها ، بل هي قلوب أخرى مركزها القلب الصنوبري ولكنها غيره .

إن هذا التصور الخاطىء لطريق معرفة الله قديماً وحديثاً من أكبر العوامل التي أبعدت كثيراً من الناس عن طريق الايمان الصحيح بالله ، مع أن مثل هذا التصور خاطىء بالبداهة، لأن العقل ببداهته يحكم أن الله خالق المادة ليس بمادة ؛ لأن المادة لا تخلق مادة ، وإذا كان منتهى إدراك الحواس في عالمنا هذا المادة المحسوسة فقط ؛ فلن يكون الله محل إدراكها . والذي يبدو أنه ما من أمة من الأمم أو كافر من الكافرين إلا وعندهم هذه الشبهة حول التصور الحسي للطريق إلى معرفة الذات الإلهية ، فلقد سمعنا في عصرنا هذا أفراداً يجعلون عدم الرؤية سبباً للإلحاد ، وسمعنا كذلك دولاً تصرح بهذا ، كما صرحت بذلك إذاعة الاتحاد السوفياتي عقب إطلاق قمرها الصناعي الأول إلى الفضاء .

ومن طرائف أجوبة الفطرة على مثل هذا الاتجاه نكتة يقال إنها وقعت في مدرسة ابتدائية ، حيث وقف معلم ابتدائي يقول لطلاب السنة الابتدائية السادسة: أترونني ؟ قالوا : نعم ، قال : فإذن أنا موجود ، أترون اللوح ؟ قالوا : نعم ، قال : فاللوح إذن موجود ، أترون الطاولة ؟ قالوا : نعم ، قال : فالطاولة إذن موجودة ، قال : أترون الله ؟ قالوا : لا ، قال : فالله إذن غير موجود . فوقف أحد الطلاب الأذكياء وقال : وترون عقل الأستاذ ؟ قالوا : لا ، قال: فعقل الأستاذ إذن غير موجود .

ويبدو أن هذا الوهم الذي يتمسك به كثير من الكافرين قديم قدم الكفر، كما أنه أثر عن أمراض في النفس والقلب ، وليس أثراً عن فكر سوي أو عقل مستقيم أو إنصاف في تحقيق .

فقد حدثنا القرآن الكريم أن الكافرين في كل عصر ، كانوا يشترطون للايمان أن يحسوا بالله عن طريق السمع أو الرؤية، وهذا بعض ماحدثنا به القرآن ذاكراً علل هذا الاشتراط ، وهي ذاتها الأمراض التي ينتج عنها هذا التصور الفاسد والكلام الخاطىء . ويحدد القرآن أسباب هذا الطلب بأنها : الجهل ، والكبر ، والانحراف ، والظلم .

١ – الجهل : « وقـال الذين لا يعلمون : لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون » (البقرة : ١١٨) . ويلاحظ في الآية أنهـا أشارت إلى أن هذا القول ليس كلام عالمين بل كلام جهـــال ، وأن هذا الكلام ليس جديداً بل هو منطق الكافرين دائماً قديماً وحديثاً ، وذلك أثر عن تشابه القلوب ، وأخيراً فإنها تقرر أن الطريق إلى الله هي آياته ، أي آثاره التي تدل عليه .

٢ – الكبر : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا : لولا أُنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً . يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين » (الفرقان : ٢١ – ٢٢).

وكما رأيناهم في الآية الأولى يريدون أن يسمعوا ، نراهم هنا يريدون أن يروا ، ولكن من هم الذين يريدون أن يروا ؟ إنهم الذين يتصورون أن الحيـــاة الدنيا هي كل شيء وليس وراءها إلا العدم . وكما ردت الآية الأولى عليهم بطريق غير مباشر ؛ كذلك بينت هذه الآية أن عالماً غير هذا العالم وفي قوانين غير هذه القوانين يرى الكافرون الملائكة ، أما قوانين هذا العالم العادية فليس فيها للحواس من عالم الغيب نصيب ، وإذا كانت الملائكة في قوانين هذا العالم العادية لا ترى ، فأولى إذن أن تكون الذات الإلهية كذلك . كما بينت الآية أيضاً أن الكبر وحده هو الذي دفعهم إلى مثل هـذا المنطق وليس الوضع السوي للانسان الذي يرغب بالحق ويسلك إليـه طريقه الصحيح .

٣ – الانحراف : وآية أخرى تحدثنا عن أحد فراعنة مصر إذ يقول :

« وقال فرعونُ يا هامانُ ابنِ لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب . أسبابَ السموات فأطلعَ إلى إله موسى وإني لأظنـه كاذباً ، وكذلك زين لفرعونَ سوءُ عمله وصُدَّ عن السبيل » (المؤمن : ٣٦ – ٣٧) والآية كما ترى تضمنت الرد في

قولها : « وصد عن السبيل » فليس ما تصوره فرعون طريقـــاً يعرف به الله هو الطريق الصحيح؛ بل هو طريق خاطىء .

٤ ــ الظلم : وآية أخرى تحدثنا أن اليهود طلبوا هذا الطلب ظلماً :

« وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون » (البقرة : ٥٥) . وفي موضع آخر . « فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا : أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » (النساء : ١٥٣) .

وكما ردت الآية الأولى على أمثال هؤلاء بشكل ضمني ، فكذلك هنـــا أشعرتنا بالرد بكلمة (بظلمهم) ، فليس العدل هو الذي دفعهم إلى أن يطلبوا مثل هذا الطلب بل الظلم ؛ ظلم النفوس للحق ، إذ تعرفه وتتنكر له . وكما طابق قول الكافرين اليوم قولهم قديماً في هذا الموضوع ، كذلك يطابق تهجمهم اليوم تهجمهم في الماضي ، ففي الماضي يقص علينا القرآن قصة تهجمهم فيقول : « قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر » (الأنبياء : ٤ ــ ٥) .

فقد اتهموا المؤمنين بالله بأنهم: متوهمون، ، وكاذبون،وعاطفيون وأصحابهم اليوم يتهمون المؤمنين بأنهم : غير علميين ، وغير صادقين ، ومشوشون مخدوعون .

ولئن سار على هذه الدروب كثير من الناس ، فليس للمسلم صاحب القلب الكبير أن يقتفي أثر الضالين ، فيقع فيما حذره الله منه « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل، ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل» (البقرة : ١٠٨) .

* * *

٢ ـــ الطريق الى الله : آثاره

وإذن فمثل ذاك الطريق لن يصل بنا إلى غاية في موضوع الذات الإلهية ، فتحديد الطريق ومعرفته أساس لكي نصل إلى الهدف . إن الطريق إلى الله هي آثاره التي تدل عليه وهي طريق وحيد ، والعقل والفكر والعلم شروط أساسية لسالك هذا الطريق .

إذ بدون عقل لن نعرف الآية ، وبدون فكر لن يُعرف صاحبُها ، وبدون علم لن تكون معرفة للآية أو لصاحبها . ولعل هذا الكلام مستغرب عند الملحدين ، إذ أنهم يعطون لأنفسهم دائماً لقب : العلمانيين والعقلانيين والأحرار والمفكرين ، ولكن الدعوى بدون دليل ليس لها أي قيمة علمية .

وسيكون في كل مانكتبه في هذا البحث الدليل - إن شاء الله تعالى - على صحة ماقلناه، وهدم ما ادّعوه « والذين يحاجون في الله من بعدما استجيب له حجتهم داحضة » (الشورى : ١٦) وسيأتيك بيان هذا ..

أما الآن فنقول : المتأمل أدنى تأمل للقرآن ، يرى أن القرآن يلفت النظر بشكل واضح وواسع للعقل والفكر والعلم والآثار ، وهي الشروط الأساسية لمعرفة الله بشكل واسع وواضح « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ، أروني ماذا خلقوا من الأرض، أم لهم شرك في السموات ؟ ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » (الأحقاف : ٤) .

أي هل هناك ذرة من علم تشهد أن غير الله هو الخالق ، فإذا ما أنكر الناس ربهم ، فليس ذلك دليلاً على العلم بل هو دليل على الجهل « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ، ولا هدى ، ولا كتاب منير » (الحج : ٨) .

ولكنه ليس الجهل المطلق المجرد عن أية معرفة ، بل هو جهل خاص ذكره الله تعالى بقوله : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (الروم : ٧) . « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم » (النجم : ٢٩ - ٣٠) .

إن الإكثار من ذكر العلم والفكر والعقل في القرآن ظاهرة تستلفت النظر بشكل بارز « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (الرعد : ٤) « إن في ذلك لآية لقوم يعلمون » (النمل : ٥٢) « إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » (النحل : ١١) . « إن في ذلك لآيات للعالمين » (الروم : ٢٢) . « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » (يونس : ١٠١) .

ومن ثم فإن المتأمل للقرآن يدرك أن الاسلام يفرض على المسلم أن يفكر ، ويفرض عليه أن يتعلم ، وأن العلم والفكر جزءان من شخصية المسلم ؛ في الوقت اللذان هما عند غير المسلم شهوة يتسلى بها ، أو باب معاش يرتزق منه ، أو هواية عند بعض الأفراد ، وإذ يفرض الاسلام العلم ، فلأن بالعلم يعرف أن الإسلام حق « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق » (سبأ : ٦) .

وسندرس في صفحاتنا القادمة إن شاء الله آيات الله لنتبين الحقيقة السافرة ، تلك التي تقول أن الكافرين بالله أضلوا قلوبهم إذ لم يهتدوا إليه ، وأن المؤمنين هدوا قلوبهم إذ اهتدوا إليه « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » (التغابن : ١١) ، وأن مثل الكافر الذي لم يشاهد الله بعقله بعد رؤيته آياته ، كمثل حامل أسفار لا يعرف قيمتها ولا مؤلفها فينسبها إلى المجهول المعدوم . وسنرى كذلك - إن شاء الله - أنه ليست قلة الآيات ، ولا غموضها ، هي التي أدت بالكثير إلى الكفر ، بل الآيات من الكثرة بحيث لا تعد ، ومن الوضوح بحيث لا تخفى ، ولكن السر في الإنسان ذاته ، السر في إعراضه هو عن الآية ، في كبره عن الاعتراف بالحق ، في عدم

تعرفه على الحقيقة ، في انحرافه عن فطرة الانسان وأخلاق الانسان بحيث يصبح في حالة انغلاق قلب وعمى ؛ لدرجة أنه لو حركته القدرة الإلهية بشكل معجز لبقي مصراً على الإنكار .

ويحدثنا القرآن عن أمثال هؤلاء فيقول : « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرُجون . لقالوا إنما سُكِّرَتْ أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » (الحجر : ١٤ — ١٥) . « وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر » (القمر : ٢) « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (يوسف : ١٠٥) .

وقبل أن نبدأ باستعراض الآيات نحب أن نسأل :

ترى هل الله هو الذي يحتاج إلينا كي نؤمن به ، أم نحن الذين نحتاج أن نؤمن به من أجل أنفسنا ؟ « إن الله لغني عن العالمين » . (العنكبوت : ٦) وإذن فلنحرر أنفسنا من أجل أن نكون أهلاً لرؤية آيات الله :

١ — **من الكبر** : لأن الله لا يُري قلباً متكبراً آياته « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ،وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » (الأعراف : ١٤٦) .

٢ — **ولنحرر أنفسنا من الظلم والكذب** : « والله لا يهدي القوم الظالمين » (الصف : ٧) .« إن الله لا يهدي من هو كاذب كفّار »(الزمر :٣).

٣ — **ولنحرر أنفسنا من الإفساد في الأرض ونقض العهد وتقطيع أواصر ما ينبغي أن يوصل :**

« وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه »

ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض، أولئك هم الخاسرون ».
(البقرة : ٢٦ - ٢٧) .

٤ - ولنحرر أنفسنا من الغفلة : إن أردنا أن تتكشف آيات الله كلها لنا ، فإن بعضاً من آيات الله يتكشف للانسان بمجرد الفكر إن لم تكن هناك موانع ، وأخرى بمجرد العقل : ومثال تلك وهذه كل آية في القرآن قد قال تعالى عنها : « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (الرعد : ٣) . « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (الرعد : ٤) .

ولكن آيات الله كلها لا تتكشف لقلب إلا إذا اجتمع لصاحبه فكر مع ذكر: « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض » (آل عمران : ١٩٠ - ١٩١) .

وما أعرض معرض عن الله إلا لغفلة ، ولا غفلة إلا وراءها لعب ولهو ، والحياة الدنيا كلها لعب ولهو : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو » (محمد : ٣٦) .

« اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدَث إلا استمعوه وهم يلعبون. لاهيةً قلوبُهم » (الأنبياء : ١ - ٣) .

٥ - ولنحرر أنفسنا من الإجرام : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (المطففين : ١٤). « كذلك نسلكه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين » (الحجر : ١٢ - ١٣).

٦ - ولنحرر أنفسنا من التردد في قبول الحق إذا رأيناه صريحاً :
« ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون».
(الأنعام : ١١٠) . وساعتئذ فإن آيات الله من الإشراق بحيث تغمر كل

جوانب قلبك ، بعد إذ أعددته لتلقي النور ، ولكن سيهات والقلب قلب شيطان أن يكون أهلاً لهداية الرحمن ، ذلك أن الضباب الكثيف يمنع أشعة الشمس ، والعطب في العين يمنـــع الرؤية ، والمرض في الأذن يمنع السمع ، وليس الذنب ذنب الماء الفرات إذا وجده المريض مراً : « يا أيها الرسول لا يحزُنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين ، لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون إن أوتيتم هـذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذابٌ عظيمٌ » (المائدة : ٤١) .

فالسر دائماً في الانسان نفسه : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » (الصف : ٥) . وأما آيات الله فواضحة بينة : « وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين » (الأنعام : ٥٥) . وآيات الله نراها في ثلاثة :

١ ـ الكون ـ ٢ ـ القرآن ـ ٣ ـ المعجزات والكرامات . وقد عبر القرآن عن كل من هذه الثلاثة بأنه آية تدل عليه :

الكون : « وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون » (الذاريات : ٢٠ ـ ٢١) . « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (يوسف : ١٠٥) . « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القـــديم » (يس : ٣٧ ـ ٣٩) . « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله » (الروم : ٢٢ ـ ٢٣) .

القرآن : « وقالوا لولا أُنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله

وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم »(العنكبوت: ٥٠ – ٥١) . « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم »(العنكبوت: ٤٩).« وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله »(آل عمران : ١٠١).

المعجزات : « وفيكم رسوله » (آل عمران : ١٠١) . « اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » (القمر : ١ – ٢) . « ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية » (هود : ٦٤) . « ورسولا إلى بني إسرائيل ؛ أني قد جئتكم بآية من ربكم ، أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص ، وأُحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » (آل عمران : ٤٩) .

ونصوص القرآن تشير إلى أن في الكون آيات وليس آية ، وفي القرآن آيات وليس آية ، والمعجزات آيات وليست آية .

إن عشرات الظواهر في الكون كل واحدة منها تدل على الله . وعشرات الظواهر في القرآن كل ظاهرة منها كافية للدلالة على الله . والمعجزات ظواهر تاريخية كل ظاهرة منها كافية للدلالة على الله . وفي كل ظاهرة آلاف الإشارات كل واحدة منها تدل على الله ، فالله أقام الحجة على الناس قياماً كاملاً : « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »(النساء : ١٦٥). « قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ، قالوا : بلى ، قالوا : فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » (المؤمن : ٥٠) . في هذا البحث سنعرض لآيات الله في الكون ، مقيمين الحجة على كل كافر ومعاند ، أن الله موجود وأن له صفات الكمال والجلال والجمال كلها . وفي البحث الثاني الذي عنوانه «الرسول» سنرى بشكل ضمني آيات الله في القرآن وآياته في معجزات الرسل ؛ إذ كما أن القرآن آية

تدل على الله ، وكما أن في المعجزة بشكل مطلق آية تدل على الله ، فإن في القرآن بنفس الوقت شهادة على أن محمداً رسول الله وكذلك في معجزاته ، ولذلك فقد أخرنا هذين إلى الرسالة الثانية حيث إقامة الدليل على صحة نبوة الرسول ﷺ إن شاء الله تعالى .

ولا زالت الكرامات في هذه الأمة تتوالى . وكل كرامة في هذه الأمة إنما هي معجزة لرسولها عليه السلام . ومن ثم فكل كرامة هي في حد ذاتها دليل على صحة رسالة رسولنا ودليل على أن الله موجود ، إذ الكرامة كالمعجزة في كونها خرقاً لعالم الأسباب .

ومن تأمل ما سنذكره في هذه السلسلة من هذه الظواهر – وهي غيض من فيض – فإنه لا يسعه إلا أن يكون مسلماً ، مسلماً لله ورسوله .

وبعد إذ تبينت لنا ماهية الطريق الموصلة إلى معرفة الله والإيمان به ، وبعد أن تبين لنا خطأ التصورات المنحرفة عن الطريق وبعد أن عرفنا كيفية توضح الأدلة في هذه السلسلة ، ونوع الأدلة التي سيعرضها هذا البحث فلنبدأ عرض ما له صلة ببحثنا هذا بأن نستعرض ظواهر الكون التي تدلنا على الخالق العظيم .

الظاهرة الأولى

ظاهرة حدوث الكون

ظاهرة حدوث الكون : أي وجوده بعد أن لم يكن .

أول ظاهرة تدلنا على الله هي حدوث هــــذا الكون الذي يدلناعلى أن له محدثاً ، وكلما تقدم العلم أكثر أعطانا الدليل بشكل أدق وأعمق وأكثر إقناعاً على هذه الظاهرة ، بل ما قدمه العلم من أدلة عليها جعلها في حكم البديهية، إذ وضوح الأدلة وتعاضدها لم يُبْقِ مجالاً للشك فيها.فقوانين الحرارة،وقوانين الألكترون، والطاقة الشمسية؛ قد قدم كل منها دليلاً واضحاً عليها ، وبتضافر هذه الأدلة يظهر الأمر ظهوراً لايبقى معه مجال للشك ؛ هــذا عدا عـــن الأدلة الفطرية والعقلية والقطعية التي ذكرها الربانيون في كل عصر. وسنحاول أن نستعرض هذه الجوانب واحـــداً بعد الآخر ؛ لنرى كيف يقدم كل منها الدليل على كون هـــذا الكون مخلوقاً لخالق .

١ ـــ قوانين الحرارة .

يقول (ليكونت دي نوي) رئيس قسم الفيزياء في معهد باستور،ورئيس قسم الفلسفة في جامعة السوربون ، في كتابه « مصير البشرية » :

إن أحد وجوه النجاح العظيمة التي حققها العلم الحديث ؛ ربط قانون « كارنوت — كلوزيوس » — (يدعى أيضاً بالقانون الثاني في الترموديناميك) الذي يعتبر مفتاح فهمنا للمادة غير الحية — بحساب الاحتمالات، وقد أثبت الفيزيائي الكبير « بولتزمان » أن التطور غير الحي وغير القابل للانعكاس الذي يفرضه هذا القانون، يوافق تطوراً نحو حالات أكثر وأكثر احتمالاً تتصف بازدياد التناظر وتوازن القدرة ، وهكذا فإن الكون يميل نحو التوازن حيث تزول جميع عدم التناظرات الموجودة في الوقت الحاضر وتقف جميع الحركات ويسود الظلام التام .

وقد عبر « ادوار لوزكيل » عن هذا القانون وكيف أنه يثبت به أن لهذا الكون بداية بما يلي :

وقد يعتقد بعضهم أن هذا الكون هو خالق نفسه ، وعلى حين يرى البعض الآخر أن الاعتقاد بأزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد بوجود إله أزلي، ولكن القانون الثاني من قوانين الدينا ميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي ، فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ، فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية . ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب منها معين الطاقة ، ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية ، ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون. لذلك فإننا نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود ، وهكذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية ، وهي بذلك تثبت وجود الله ، وما كان له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه ، ولا بد له من مبدىء أو من محرك أول أو من خالق هو الإله .

واستدل « فرانك ألان » عالم الطبيعة البيولوجية على عدم أزلية الكون كذلك بنفس القانون ، يقول : كثيراً ما يقال : إن هذا الكون المادي لايحتاج إلى خالق ، ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف وجوده ونشأته ؟ هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال : فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده ، وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم ، وإما أن يكون أبدياً ليس لنشأته بداية ، وإما أن يكون له خالق .

أما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة سوى مشكلة الإحساس والشعور. فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهماً من الأوهام ليس له ظل من الحقيقة ، فالرأي الذي يدّعي أن هذا الكون ليس له وجود فعلي ، وأنه مجرد صورة في أذهاننا ، وأننا نعيش في عالم من الأوهام لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال .

أما الرأي الثاني القائل بأن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم ، فهو لا يقل عن سابقه سخفاً وحماقة . ولا يستحق هو أيضاً أن يكون موضعاً للنظر أو المناقشة .

والرأي الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية ، إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون وذلك في عنصر واحد هو الأزلية . وإذاً فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق ، وليس هناك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد الاحتمالين أكثر مما في الآخر ، ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً ، وأنها سائرة حتماً إلى يوم نصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل

الحياة ، ولا مناص عند حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقة عند ما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضي الوقت . أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة ، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو إذاً حدث من الأحداث ، ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ، ليس له بداية ، عليم محيط بكل شيء ، قوي ليس لقدرته حدود ، ولابد أن يكون هذا الكون من صنع يديه أ هـ. فالقانون إذن يثبت أن الكون ما دام فيه حرارة فلا يمكن أن يكون أزلياً ، لأن الحرارة لا يمكن أن توجد لنفسها بعد برودته ولو كان أزلياً لكان بارداً .

٢ ـ قوانين الحركة الالكترونية .

والشهادة الأخرى التي تدل على حدوث الكون نجدها في كل ذرة من ذرات الوجود على الإطلاق ، وذلك أن ذرات الكون كلها مؤلفة من جزيئات كهربائية سالبة وموجبة ، الموجبة يطلق عليها اسم البروتون ، والسالبة يطلق عليها اسم الألكترون ، وبعض الذرات فيها زيادة على ذلك شحنة معتدلة تسمى نيترون . والبروتون والنيترون يشكلان نواة الذرة ، بينا الألكترون تشكل كواكبها السيارة التي تدور حولها بسرعة هائلة بحركة دائرية إهليلجية ، وبسبب هذه السرعة الهائلة في حركة الألكترون يبقى الألكترون متحركاً هذه الحركة ، إذ لولا هذا الدوران لجذبت كتلة النواة كتلة الألكترون ، وعندئذ يكون العجب ، إذ في هذه الحالة يصبح جرم كالكرة الأرضية في حجم بيضة الدجاجة، إذ الفراغ كبير جداً في عالم الذرة ، فكتل الجزيئات لا تأخذ إلا حيزاً صغيراً جداً من فراغ الذرة الواسع ، وذلك أن البعد بين النواة والألكترونات الدائرة حولها كالبعد بين الشمس وكواكبها السيارة نسبياً .

من هذه الدراسة الموجزة للذرة نصل إلى الحقائق التالية :

١ ـ أن الألكترون في أكثر ذرات الوجود ـ إن لم يكن في كلها ـ في حركة دائمة دائرية .

٢ ـ وأنه ليس هناك أي دليل في الوجود يدل على أنه يمكن أن يكون هناك وضع آخر للألكترون كان عليه أولاً ثم انتقل إلى هذه الحالة ، إن لم نحكم باستحالة تصور آخر أقدم من هذا الوضع ، إذ لو كان لاحتجنا إلى مؤثر جعل ألكترونات الوجود تتحرك بعد خمود فيتوسع الكون بعد ضيق .

٣ ـ أن هـذا الكون كله مؤلف من نفس الذرات التي عرفنا خصائصها هنا ، بل من نفس العناصر ، وهذه الحركة التي نجدها في الألكترون نجدها في كل جرم في الفضاء .

وبعد هذه الحقائق نقول :

إن الشيء الدائر لابد أن تكون له نقطة بداية زمانية ومكانية بدا منها دورته . ولما كانت الألكترونات والأجرام كلها في حركة دائرية ، ولما كانت هذه الحركة غير مستأنفة كما يبدو ، فإذن لا بد أن تكون هناك بداية زمانية ومكانية لحركة الألكترون ، وهذه البداية في الحقيقة هي بداية وجود الذرات نفسها ، وبهذا نكون قد وصلنا إلى أن لهذا الكون بداية ونشأة وخالقاً خلق من العدم ، إذ العدم لا ينتج عنه وجود .

٣ ـ الطاقة الشمسية .

يجب أولاً أن نذكر كلمة توضح معنى الأزلية . إنه لو وضعنا الرقم (١) وأمامه أصفار ممتدة منه إليه على محيط الكرة الأرضية ، فإن هـذا الرقم الكبير

من السنين إنما يمثل جزءاً كالصفر تقريباً بالنسبة إلى اللانهاية أو اللابداية ، ونفس الشيء لو كان الرقم (١) أمامه أصفار من أول الكون إلى نهايته ، فإن هذا الرقم لا يمثل إلا جزءاً من اللانهاية يشبه الصفر ، وكذلك هو بالنسبة للأزل .

فالذين يقولون بقدم المادة إنما يعطونها هذا المعنى ، وهذا الذي تثبت الظواهر كلها استحالته وخلافه . والظاهرة هذه التي سنتكلم عنها تمثل إحدى هذه الظواهر .

من أين تأتي الشمس بطاقتها ؟ وكيف تحافظ على حرارتها ؟ وعندما نقول الشمس فإنما نعني كل نجوم هذا الكون ، فنجوم هذا الكون كلها شموس ترى صغيرة لبعدها عنا وشمسنا هذه نموذج عنها .

والسؤلان اللذان ذكرناهما مهمان جداً ، لأن الشمس وكل الشموس في حالة إعطاء دائم ، فهي تعطي دائماً إشعاعاً حرارياً بشكل طاقة . لقد أضيء معرض شيكاغو الذي أقيم عام ١٩٣٣ بكامله بواسطة مفتاح ضخم يدار بواسطة شعاع ضئيل كان قد انبعث من نجم (السماك الرامح) منذ أربعين عاماً .

فما سبب هذه الطاقة في الشموس ؟ أجيب على هذا السؤال أكثر من جواب ؛ ولكنها لم تكن مقنعة حتى كان الجواب الأخير وهو : إن ذرات هذه الشموس تتحطم في قلبها المرتفع الحرارة جداً ، وبواسطة هذا التحطم الهائل الواسع المستمر تتولد هذه الطاقة الحرارية التي لا مثيل لها ، وكما هو معلوم فإن الذرة عندما تتحطم تفقد جزءاً من كتلتها حيث يتحول هذا الجزء إلى طاقة ؛ وإذن فإن كل يوم يمر على أي شمس معناه فقدان جزء ولو يسيراً من كتلتها ، إن الشمس مثلاً تفقد كل يوم كذا كيلو غرام ومثلها بقية النجوم .

فلو كانت هذه الشموس قديمة أزلية فهل يمكن أن تكون في وضعها الحالي أو أنها تكون قد استنفدت وانتهى أمرها . والأزل كما رأينا هو الأزل ، ونحن

لم ننس أن قسماً من هذه الطاقة التي تصرفها الشموس يتحول إلى مادة ، ولكن نسبة التحول إلى غير التحول تبقى ضئيلة كنسبة النجوم إلى الفضاء ، وكلامنا ليس في جزء من الكون يفقد ويعوض ، فقد يوجد مثل هذا التوازن أحياناً ، ولكن كلامنا في الكون كله ، إذ مادام الفضاء عظيماً فحتماً سيضيع قسم كبير من هذه الطاقة ولايتحول إلى مادة ، ومادام هناك شعاع واحد يمكن أن نتصوره لا يصطدم بمادة حتى يعيد تشكله المادي بشكل ما من جديد ، فإن تصور أزلية الكون الحالي مستحيلة ، إذ شعاع واحد على مدى الأزل كاف لاستنفاد طاقة الوجود كله .

أما الكلام بأن الكون كله كان في الأصل طاقة، فتحولت إلى مادة، وهو الآن مادة يتحول إلى طاقة، ومن ثم سيكون مادة وهكذا ، فالذي يبدو أن المغالطات فيه واضحة ؛ ذلك أن الطاقة كطاقة إنما تظهر إذا وجدت مادة ما تقوم بها ، فالطاقة تحتاج إلى ذات وبدون ذات تكون أشبه بمعدوم ، أو بتعبير العلماء القدامى : الطاقة عرَض تحتاج إلى جوهر لتظهر فيه ، فإشعاع الشمس عندما يصادف الأرض مثلاً ؛ تأخذ ذرات الأرض حرارته وبهذا تصبح ذرات الأرض مشحونة بالطاقة الحرارية ، ولكن إذا لم يصادف هذا الشعاع مادة فهل سيتحول نفسه إلى ذرة مادية ؟ على الأقل لم يقل بهذا أحد حتى الآن ، وبهذا يتضح بما لا شك فيه أن هذا الكون ليس قديماً وأن له بداية ، وأنه لايتصور وجوده لولا أن له خالقاً ؛ هذا الخالق هو ابتدأ خلقه ووجوده بعد إذ لم يكن .

٤ – وقد عبر علماء التوحيد القدامى عن قضية حدوث الكون وابتدائه من العدم بقدرة الله على الشكل التالي :

نظروا إلى الكون فوجدوا ما فيه على نوعين : نوع يقوم بذاته ، ونوع لا يقوم بلا ذات . فمثلاً الجسم يقوم بذاته ، ولكن المرض لا يكون بلا جسم ،

والذرة تقوم بذاتها ، ولكن الحرارة لاتكون بلا ذات ، وسموا ما يقوم بذاته الجوهر ، وما لايقوم إلا بالجوهر عَرَض ؛ فالذرة جوهر وحرارتهـــا عرض ، والجسم جوهر والصحة عرض .

وقالوا: إن الجواهر لاتنفك عن الأعراض فمـــا رأينا جوهراً إلا ويلازمه عرض ما ، وكل عرض حادث ؛ فالظلام حادث ؛ فمنذ فترة كان قبله نهـار ، والنهار حادث ؛ فمنذ فترة كان قبله ليل ، وحرارة الذرات مهما كانت فإن لها بداية ، وكذلك برودتها لها بداية وهكذا ؛ وإذن فما من عرض إلا وله بداية ، وإذا كان لاجوهر إلا بعرض فـــلا جوهر إلا وله بداية ، فالكون جواهره وأعراضه كله حادث وليس أزلياً .

* * *

مناقشة سؤال :

ويثير الناس عند الوصول إلى هذه الحقيقة السؤال التقليدي : من خلق الله الذي خلق الخلق ؟ وفي مضمون السؤال الجواب عليه . فالله خالق وكونه خالقاً يجعلنا لانتصور أنه مخلوق ، إذ لو كان مخلوقاً لما استطاع أن يخلق ، ألا ترى أن الانسان مثلا مع كل ما أُوتي من إمكانات لم يستطع أن يخلق شيئاً من عدم ، فكيف نتصور خالق هذا الكون مخلوقاً .

يقول الأستاذ البنا — رحمه الله — مجيباً هؤلاء الذين يسألون هذا السؤال :

إذا وضعتَ كتاباً على مكتبك ، ثم خرجتَ من الحجرة وعدتَ إليـها بعد قليل ، فرأيت الكتـــاب الذي تركته على المكتب موضوعاً في الدرج ؛ فإنك تعتقد تماماً أن أحداً لابد أن يكون قـد وضعه في الدرج ؛ لأنك تعلم من

صفات هذا الكتاب أنه لا ينتقل بنفسه . احفظ هذه النقطة وانتقل معي إلى نقطة أخرى . لو كان معك في حجرة مكتبك شخص جالس على الكرسي ، ثم خرجت وعدت إلى الحجرة ، فرأيته جالساً على البساط مثلاً ؛ فإنك لا تسأل عن سبب انتقاله ولا تعتقد أن أحداً نقله من موضعه ؛ لأنك تعلم من صفات هذا الشخص أنه ينتقل بنفسه ولا يحتاج إلى من ينقله . احفظ هذه النقطة الثانية ثم اسمع ما أقول لك : لما كانت هذه المخلوقات محدثة ونحن نعلم من طبائعها وصفاتها أنها لا توجد بذاتها ، بل لابد لها من موجد ، عرفنا أن موجدها هو الله تبارك وتعالى . ولما كان كمال الألوهية يقتضي عدم احتياج الإله إلى غيره ؛ بل إن من صفاته قيامه بنفسه ، عرفنا أن الله تبارك وتعالى موجود بذاته وغير محتاج إلى من يوجده ، وإذا وضعت النقطتين السابقتين إلى جانب هذا الكلام ؛ اتضح لك هذا المقام ، والعقل البشري أقصر من أن يتورط في أكثر من ذلك .

وقد كان علماء التوحيد يرون أن مثل هذا السؤال لا معنى له فيقولون :

إذا سرنا مع السائلين شوطاً عندما سألوا : من خلق الله ؟ فقلنا لهم : غيره ، ومن خلق غيره ؟ غيره ، ومن خلق الثالث ؟ آخر . وماذا بعد ذلك ؟! فإذن بالتالي لابد أن نصل في النهاية إلى ذات لا بداية لها ولا خالق ، هذه الذات التي لا بداية لها ولا خالق هي الذات الإلهية ، وكل جواب في الوسط لا معنى له في النهاية ، فهناك خالق ومخلوق ولا يمكن أن يكون للخالق خالق .

والحقيقة أن الذي يسأل مثل هذا السؤال إما هازل . والجواب عليه الإعراض عنه ، أو متوهم والجواب عليه إزالة سبب التوهم ، وسبب توهمه أنه رأى كل شيء موجود محتاجاً إلى خالق . فتصور أن هذا القانون يسري على الخالق نفسه ، والجواب على هذا : أنه ليس شرطاً حتماً أن تنطبق على الصانع نفس القوانين التي يخضع لها المصنوع ؛ إذ المصنوع والقوانين التي يخضع لهـا من صنع الصانع ، وفي حدود العالم نفسه نجد أن ما صنعه الانسان لا تسري عليه حالات

الانسان ؛ فالانسان يمشي تلقائياً ، ويريد ، ويعلم ، ويدرك ، ويفكر ، ويأكل ويشرب ، ويحس ، ويشتهي؛ فهو شيء ، وما يصنعه شيء آخر ، ولكل خصائصه ؛ وهذا الكون شيء ، وخالقه شيء آخر ، وللكون خصائصه ، وللذات الإلهية صفاتها .

وفي غالب الأحيان يكون صاحب السؤال من الذين لا يؤمنون بالله ، والجواب على مثل هذا أن نقول له : إننا جميعاً متفقون على أن هناك شيئاً قديماً لا بداية له ولا خالق ، أنت تقول : أن هذا الشيء القديم هو المادة ، ونحن نقول هذا الشيء القديم هو الله ؛ وقد أثبتت العلوم كلها أن المادة غير قديمة فلم يبق إلا أن يكون الله هو القديم . وقد ذكرنا في الصفحات السابقة بعضاً مما قالته العلوم ، وننقل الآن أقوالاً أخرى لبعض علماء الطبيعة في نفس الموضوع من كتاب «الله يتجلى في عصر العلم ص ٢٧ » مختتمين بها الحديث عن هذه الظاهرة . يقول «جون كوثران » : « وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة ؛ وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية ، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية ، إذ أن لها بداية ، وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية ، وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد ». ويقول « ايرفنج وليام » في نفس المصدر ص ٥٥ :

« ... فعلم الفلك مثلاً يشير إلى أن لهذا الكون بداية قديمة ، وأن الكون يسير إلى نهاية محتومة ، وليس مما يتفق مع العلم أن نعتقد بأن هذا الكون أزلي ليس له بداية ، أو أبدي ليس له نهاية ، فهو قائم على أساس التغير » .

هذا كلام هؤلاء على كفرهم - إذ الإيمان بالله له مستلزمات لم يقم بها هؤلاء - إلا أن علمهم بقوانين الكون أوصلهم إلى هذه الحقيقة الخالدة والقائمة في كل فطرة، والبديهية عند كل عقل مستقيم . والله عز وجل يقول : « أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السموات والأرض» (الطور: ٣٥ - ٣٦).

الظاهرة الثانية

ظاهرة الإرادة

- ١ -

إن هناك فرضيات ثلاث يمكن أن تذكر أثناء الحديث عن الكون وما فيه ؛ كتعليل لوجوده على ما هو عليه :

الأولى : - أن يكون من صنع الله .

الثانية : - أن يكون من صنع ذرات المادة وأجزائها وعناصرها عن قصد وإرادة وعناية منها ، أي أن عناصر المادة الأصلية فكرت ودبرت واتفقت على صنع تنوعات هذا العالم بهذه الأشكال والصور التي نراها .

الثالثة : - أن يكون الكون بما فيه ، قد تكون بطريق المصادفة ، أي أن الجزيئات الكهربية التي منها تتألف ذرات هذا الكون وجدت مصادفة ، وكان بعضها سالباً والآخر موجباً والأخير معتدلاً مصادفة ، وكل جزيء سالب التقى بجزيء موجب مصادفة ، ومجموعة متدرجة من الواحد إلى ٢٣٨ من الجزيئات الموجبة شكلت مع بعضها نوى مصادفة ، والجزيئات السالبة أخذت تدور حول هذه النوى مصادفة ، وكان بين النواة والكهارب فراغات لولاها لكان جرم كالأرض بحجم البيضة مصادفة ، ووجود المدارات الثابتة لكل ثمانية كهارب كان مصادفة ، ووجود إمكانيات الاتحاد بين العناصر لتشكل مركبات جديدة

بسبب نقص الألكترونات عن الثانية في غلافات بعض الذرات كان مصادفة ، واتحاد العناصر واجتماعها لتكون هذه الأجرام الهائلة من الشموس كان مصادفة، وانتظام الشموس في مداراتها والكواكب في مداراتها كما تنتظم الألكترونات مصادفة ، والحرارة الموجودة في الشموس والاشعاع والترتيب كان مصادفة ، ثم الأرض بوضعها الحالي الصالح للحياة: قشرتها ، هواؤها ، ماؤها، جبالها ، حجمها، وجدت مصادفة ، ثم الحياة بتنوعاتها وتركيباتها، وأجهزتهـــا المعقدة ، وجدت مصادفة،ثم الانسان : بعقله،وفكره،وتركيبه، وروحه، وأخلاقه، واستعداداته الخيالية والتصورية والعلمية ، وإمكاناته للتسخير . كل هذا وجد مصادفة .

هذه افتراضات ثلاث لايمكن أن يكون غيرها لتعليل وجود هذا الكون على ما هو عليه ؛ أما الفرض الأول فيقول به المؤمنون ، وأما الفرض الثاني فـلا يقول به أحد ، وأما الفرض الثالث فيقول به الماديون .

وإذن فنحن أمام فرضين فقط: إما أن يكون هذا الكون بتنوعاته من صنع صانع له إرادة طبقاً لمبدأ السببية . وإما أن يكون نتيجة المصادفة .

- ٢ -

ومهمتنا أن نرى أياً من الفرضين يقوم عليه البرهان ، وأياً منهما لا دليل عليه ولا برهان ؛ إذ أن المصادفة في حد ذاتها تكون أحياناً ممكنة وتكون أحياناً في حكم المستحيلة عقلاً ، وسنضرب أمثلة نبين منها حالة الإمكان وحالة الاستحالة :

خذ لوحاً واغرز فيه إبرة ، وضع في ثقبها إبرة ثانية أخرى وقل لي : إذا رأى إنسان هاتين الإبرتين، وسأل كيف أدخلت الثانية في ثقب الأولى، فأخبره إنسان معروف بالصدق أن الذي أدخلها رجل وضعها بيده في شق الإبرة الأولى،

ثم أخبره إنسان آخر معروف بالصدق أيضاً ، أن الذي ألقاها صبي صغير ولد من بطن أمه أعمى ، فوقعت في الشق بطريق المصادفة فأي الخبرين يصدق ؟

لا ريب أنه يميل إلى تصديق الخبر الأول ؛ ولكنه أمام صدق المخبرين يرى أن المصادفة ممكنة ؛ فلا يجزم بترجيح أحد الخبرين على الآخر ، ولكن إذا رأى هذا الرجل إبرة ثالثة مغروزة في شق الثانية أيضاً ، فهل يبقى عدم الترجيح على حاله ؟!

الحقيقة أنه يتقوى ترجيح (القصـــد) على المصادفة ، ولكن لايزال للمصادفة محل ولو كان ضعيفاً ، فإذا ما رأى الرجل أن هناك عشر إبر ، كل واحدة منها مغروزة في ثقب الأخرى التي تليها ؛ فهل يبقى ترجيح فكرة القصد على وضعه السابق ؟ الحقيقة أن ترجيح فكرة القصد يتقوى لدرجة تكاد تتلاشى فيها فكرة المصادفة .

وكلما ازداد تعقيد المسألة أكثر دنت فكرة المصادفة من الاستحالة ؛ فمثلاً لو قلنا : إن الإبر العشر مرقمة بخطوط ، لكل واحدة منها رقم ، من الواحد إلى العشرة ، وقيل لنا في الخبر : أن الصبي الأعمى أُعطي كيساً فيه هذه الإبر العشر مخلوطة مشوشة ، وأنه كان يضع يده في الكيس ويستخرج الإبر تباعاً على ترتيب أرقامها بطريق المصادفة ، ويلقيهـــا اعتباطاً ، فتقع الأولى في شق المغروزة في اللوح ، وتقع الثانية في الأولى ، والثالثة في الثانية ، والرابعة في الثالثة ، وهكذا حتى أتم إدخال الإبر العشر بعضها في بعض على ترتيب أرقامهـــا بطريق المصادفة ، ثم إذا تعقدت المسألة أكثر بحيث جعلنا بدل الصبي الهواء أو الماء أو العدم .

فماذا يكون موقف الانسان في هذه الحالة ، هل يصدق خبر من يقول بالمصادفة ؛ أو خبر من يقول : بأن هناك ذاتاً ذات إرادة وبصر هي التي فعلت هذا ؟

لاشك أن الانسان العاقل يرجح ترجيحاً مطلقاً بداهة ، أن الثاني هو الصادق .

وسبب هذا الترجيح يعود إلى أن للمصادفة قانوناً رياضياً عقلياً لا يمكن الخروج عنه ، وهو :

(أن حظ المصادفة من الاعتبار، يزداد وينقص ، بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتزاحمة) .

فكلما قل عدد الأشياء المتزاحمة، ازداد حظ المصادفة من النجاح، وكلما كثر عددها قل حظ المصادفة فإذا كان التزاحم بين شيئين اثنين متكافئين ، يكون حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد اثنين) . وإذا كان التزاحم بين عشرة ، يكون حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد عشرة)، وذلك لأن كل واحد له فرصة للنجاح مماثلة لفرصة الآخر بدون أقل تفاضل طبعاً ، وإلى هنا يكون الحظ في النجاح قريباً من المتزاحمين حتى لو كانوا مائة أو ألفاً ، ولكن متى تضخمت النسبة العددية تضخماً هائلاً ، يصبح حظ المصادفة في حكم العدم بل المستحيل . ولإدراك المسألة بشكلها الواسع الواضح فلنقرأ هذا المثال :

افرض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مفرقة في صناديقها ، فجاءت هزة أرضية قلبت صناديق الحروف وبعثرتها وخلطتها ، ثم جاءك منضد الحروف يخبرك بأنه قد تألف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعاني ، فالقضية تكون في هذه الحالة قابلة للتصديق جداً .

ولو قال لك : إن الكلمات العشر ألفت جملة مفيدة كاملة ، تستبعد ذلك ؛ ولكن لا تراه مستحيلاً .

ولكن لو أخبرك أن حروف المطبعة بكاملها، تشكلت وكونت عند اختلاطها بالمصادفة كتاباً كاملاً من /٥٠٠/ صحيفة ، يتضمن قصيدة واحدة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة منسجمة بألفاظها وأوزانها ، لا شك أنك في هذه الحالة ترى الاستحالة بديهية وواضحة ..

والسبب في رؤية الاستحالة يعود إلى قانون الصدفة نفسه .

فإذا علمنا أن نسبة خروج الأرقام العشرة متسلسلة في مسألة الإبر هو (١)

إلى عشرة مليارات، ولو كانت الإبر (١٢) لكان احتمال خروجها متتابعة واحد إلى ألف مليار ، ولو كانت (٢١) لأصبح حظ المصادفة بنسبة واحد ضد ألف مليار مليار .

فكيف بالتزاحم الذي يجري بين (٥٠٠) ألف حرف لتكوين (١٢٥) ألف كلمة تقريباً ، بأشكال وترتيبات لا تعد ولا تحصى أبداً ؟إن النتيجة هائلة لدرجة أن نسبة الاحتمالات في حدوث ذلك لا تحيط بها أرقام اللغة .

ولكي نعرف معنى كلمة (٥٠٠) ألف حرف و(١٢٥) ألف كلمة ب (٢٨) حرف هجائي ، لندرس النقل العلمي : « إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية، وهي تتكون من خمسة عناصر هي : الكربون والهيدروجين، والنتروجين،والأوكسجين، والكبريت، ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد (٤٠,٠٠٠) ذرة ، ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة (٩٢)[1] عنصراً موزعة كلها توزيعاً عشوائياً ، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزيئاً من جزيئات البروتين ، يمكن حسابه بمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطاً مستمراً لكي تؤلف هذا الجزيء ، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد .

وقد قام العالم الرياضي السويسري « تشارلز يوجين جاي » بحساب هذه العوامل جميعاً ، فوجد أن الفرصة لاتتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة (١) إلى (١٠)^{160} أي بنسبة واحد إلى رقم (١٠) مضروباً بنفسه (١٦٠) مرة ، وهو رقم لايمكن النطق به أو التعبير عنه

---

(١) كتب هذا النقل في زمن سابق على زمن اكتشاف بعض العناصر التي اكتشفت حديثاً .

بكلمات، وينبغي أن تكون كمية المادة، التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة، بحيث ينتج جزيء واحد أكبر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات .

(يقول ليكونت دي نوي : يجب أن نتصور حجماً أكبر من الكون الأينشتايني بسكستيليون سكستيليون مرة) ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات، قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها (٢٤٣) مرة من السنين (١٠)^{٢٤٣} .
إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية ، فكيف تتآلف ذرات هذه الجزيئات ، إنها إذا تآلفت بطريقة أخرى غير التي تتآلف بها تكون غير صالحة للحياة ، بل تصير في بعض الأحيان سموماً .

وقد حسب العالم الإنكليزي « ج . ب ليثر » الطرق التي يمكن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات ، فوجد أن عددها يبلغ الملايين « ١٠ »^{٤٨} ؛ وعلى ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئاً بروتينياً واحداً .

ولقد ذكرنا هذا النص لنرد مباشرة على من يقول : إن مـــا لا يحدث في هزة واحدة؛ يمكن أن يحدث في غيرها إلى ملايين الهزات ، لنبين الزمن الهائل الذي نحتاجه لتكوين جزيء واحد فيه خمسة عناصر ؛ مع ملاحظة أن أقصى تقدير لعمر الكون خمسة بلايين سنة .

فخمسة عناصر في جزيء واحد، يمكن أن تكون تشكيلاتها « ١٠ »^{٤٨} نوع ، فكيف بـ (٢٨) حرف هجائي تريد أن تشكل قصيدة مؤلفة من «١٢٥» ألف كلمة ، مجموع حروفها (٥٠٠) ألف حرف ، بتسلسل معين ، بفكر معين ، بنظم معين ! ! .

- ٣ -

وعلى ضوء هذا الذي ذكرناه ؛ نذكر كلمات علمـــاء التوحيد المسلمين في هذا الموضوع ، فإن لها علاقة وثيقة بنظرية الاحتمالات للوصول بالنهاية إلى المراد :

يتحدث علماء التوحيد عن الكون كحديثهم عن كل الممكنات التي يمكن أن تكون ، ويعددون هذه الممكنات ، فيقولون :

الممكناتُ المتقـابلاتُ	وجودُنا والعدمُ الصفاتُ
أزمنةٌ، أمكنةٌ،جهاتُ	كذا المقاديرُ روى الثقاتُ

فإذا كان هذا الكون من الممكنات ، فكل ممكن يمكن أن يكون موجوداً ، ويمكن أن يكون معدوماً ، ويمكن أن يكون على صفة ، ويمكن أن يكون على صفات كثيرة لا تعد ، ويمكن أن يكون في زمان ، ويمكن أن يكون في أزمنة أخرى ، ويمكن أن يكون في مكان ، ويمكن أن يكون في أمكنة أخرى ، ويمكن أن يكون بمقدار ، ويمكن أن يكون بمقادير أخرى ؛ وبالتالي فكل جزء من أجزاء هذا الكون تنطبق عليه هذه المعاني .

فإذا كان من بين هذه الممكنات كلها يختار دائماً واحد، هو الأحكم والأحسن والأكثر نظاماً ، ولو كان غيره لكان الخلل والفوضى ؛ فلا بد إذن من وجود إرادة عليا رجحت أحد وجوه الاحتمال والإمكان .

- ٤ -

وبعد هذا كله وقبل أن نصوغ مسألتنا في صيغتها الأخيرة نقول :

إن المسألة في موضوع الكون أعقد بكثير من المثالين اللذين ضربناهما ،

ففي مثال الطفل والإبر أو مثال المطبعة والحروف . الإبر موجودة بتكوينها بإمكانية الغرز فيها ، ذراتها متآلفة مع بعضها على ترتيب معين ، من معدن معين ، والطفل موجود وعنده إمكانية الرمي ، وله إرادة تتوجه حتى يرمي وإن كان أعمى . وحروف المطبعة موجودة ، وهذا حرف كـذا ، وذلك حرف معين ، وذراتها مجتمعة حتى تكون هـذا الحرف ، وموجودة بجانب بعضها ومصفوفة في صناديقها ، وهناك شيء اسمه هزّة أرضية لها قوانين .

أما في موضوع الكون ، فإن القضية من التعقيد لدرجة لا تستطيع أن تحيط بها عقول البشر كافة ، مما يجعل الصدفة مستحيلة التصور في حد ذاتها ّبلهَ الوقـوع .

- ٥ -

ونبدأ الآن في صياغة المسألة :

هذا الكون مؤلف من عناصر واحدة: بنجومه ، وشموسه ، ومجراته ، وأرضه ، يبلغ عدد هذه العناصر أكثر من مئة ، وهذه العناصر نفسها عبارة عن شحنات كهربائية بعضها موجب ، والآخر سالب ، وبعضها معتدل . ويسمى الموجب بروتون ، والسالب ألكترون ، والمعتدل نيوترون .

وعدد الألكترونات في مدار الذرة الخارجي يكون مطابقاً لعدد البروتونات التي في نواتها ، فإذا كان في نواتها بروتون واحد كان في المدار ألكترون واحد كما في الهيدروجين ، وإذا كان في النواة بروتونان كان في المدار ألكترونان ، وهكذا يتدرج العدد / واحـد / من أخف العناصر وزناً ذرياً إلى أثقلها وهو الأورانيوم ، وبهـذا التعادل العجيب بين الألكترونات السالبة والبروتونات

الموجبة تتعـــادل كهربائية الذرة ، أما النوترونات المحايدة فإن عددها في نواة الذرة – قل أو كثر – لايتعادل مع عدد الألكترونات .

واختلاف العناصر أثر عن اختلاف عدد البروتونات والألكترونات في ذرة كل منهـــا ، فالفارق بين الهيدروجين والأورانيوم ؛ أن الأول فيه بروتون واحـد وألكترون واحد ، بينما الأورانيوم فيه (٢٣٨) بروتون و (٢٣٨) ألكترون .

والعناصر هذه هي التي يتشكل منها الكون كله ، وهي نفسها موجودة تقريباً في كل جرم ، فنفس العناصر الموجودة في الأرض موجودة في الشمس ، وكذلك في كل نجم موجود في هذا الفضاء كله .

وإذن فكل هذه المجموعة من العناصر تجتمع مع بعضها بكتل عظيمة التشكل جرماً ، وكل جرم له نفس القوانين التي للأجرام الأخرى ، وهـــذه الأجرام كلها لها مداراتها المنتظمة ، لكل مداره الذي لايصطدم فيه مع أي جرم آخر رغم السرعات الهائلة التي يسير فيها ، حتى إن احتمال اصطدام نجم مع آخر كاحتمال اصطدام سفينتين: إحداهما في المحيط الهندي، وأخرى في المحيط الأطلسي .

وشمسنا نحن واحدة من هذه الأجرام التي لها نفس خصائصها وقوانينها ، ويتبع شمسنا كواكب سيارة إحداها الأرض التي نعيش عليهـا والتي ظهرت فيها الحياة .

– ٦ –

ثم :

١ – لو كانت قشرة الأرض أسمك مماهي عليه بمقدار بضع أقدام؛لامتص ثاني أكسيد الكربون والأكسجين ، ولما أمكن وجود حياة .

٢ – ولو كان الهواء أقل ارتفاعاً مما هو عليه، فإن بعض الشهب التي تحترق بالملايين كل يوم في الهواء الخارجي ، كانت تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق .

٣ – ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي ؛ لكنا تجمدنا ، ولو أنها زادت بمقدار النصف ، لكنا رماداً منذ زمن بعيد .

٤ – ولو كان قمرنا يبعد عنا « ٢٠٫٠٠٠ » ميلا بدلاً من بعده الحالي ، – ولم لا وقمر المريخ يبعد عنه « ٦٠٫٠٠٠ » ميل – ؛ لكان المد يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضي تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح الجبال نفسها .

٥ – ولو كان ليلنا أطول مما هو عليه الآن عشر مرات؛ لأحرقت شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار ، وفي الليل يتجمد كل نبت في الأرض .

٦ – ولو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠٪ أو أكثر من الهواء بدلاً من ٢١٪؛ فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال، لدرجة أن أول شرارة في البرق تصيب شجرة لابد أن تلهب الغابة كلها .

ولو كانت نسبة الأوكسجين ١٠٪ ، لتعذر أن يكون التمدن الانساني على ما هو عليه اليوم .

٧ – ولولا المطر؛ لكانت الأرض صحراء لاتقوم حيـــاة عليها ، فلولا الرياح والبحار والمحيطات ؛ لمـا كانت حياة ، ولولا أن الماء يتبخر بشكل يخالف تبخر الملح ؛ لما كانت حياة ، ولولا أن البخار أخف من الهواء، لما كانت حياة .

٨ – ولو كانت مياه المحيطات ؛ حلوة لتعفنت وتعذرت بعد ذلك الحياة على الأرض ، حيث إن الملح هو الذي يمنع حصول التعفن والفساد ، ولولا أن الكلور يتحد مع الصوديوم ؛ لما كان ملح ، وبالتالي ما كانت حياة .

٩ – ولو كان محور الأرض معتدلاً بدل هذا الميل الحالي الذي مقداره ٢٣° مع سكون الأرض ؛ لتجمعت قطرات المياه المتبخرة من المحيطات والبحار ونزلت في مكانين محدودين في الشمال والجنوب ، وكونت قارات الجمد ، ولظل الصيف دائماً والشتاء إلى الأبد ، ولهلك الناس والحياة والأحياء .

١٠ – ولو كانت الأرض كعطارد لايدير إلا وجهاً واحداً منه نحو الشمس ، ولايدور حول محوره إلا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس ، أو بتعبير آخر لو كان قسم من الأرض ليلاً دائماً والآخر نهاراً دائماً ؛ لما عاش أحد حيث الليل الدائم أو النهار الدائم ، ولا كانت حياة .

١١ – ولو لم تكن قوانين الجاذبية موجودة ؛ فمن أين تلتقي الذرات وجزيئات الذرات ، ومن أين تكون الشمس شمساً والأرض أرضاً ? ولو كانت فمن أين تبقى في مكانها الحالي ، ولو بقيت فكيف تكون الحياة وكيف يسير الانسان ?

١٢ – وبوجود قانون الجاذبية لو كانت الأرض صغيرة كالقمر أو حتى لو كان قطرها ربع قطرها الحالي . لعجزت عن احتفاظهـا بالغلافين الجوي والمائي اللذين يحيطان بها ، ولصارت درجة الحرارة بالغة حد الموت .

١٣ – ولو كانت الألكترونات ملتصقة بالبروتونات داخل الذرة ، والذرات ملتصقة ببعضها بحيث تنعدم الفراغات ، لكانت الكرة الأرضية بحجم البيضة فأين يمكن أن يكون الانسان وغيره ؛ وعندما تكون المسألة كذلك ، يتغير كل ما نشاهده الآن على فرض وجود جرم بحجم الأرض بدون فراغات بين جزيئات ذراته

١٤ – ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها ، لما أمكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوانٍ ولا نبات ، إن مواقع الألكترونات في غلاف الذرة

تنتظم في ترتيب ثماني ، فإذا بلغ عدد الألكترونات في مدار الذرة السطحي الثمانية ، تنتهي حمولة هذا السطح بامتلاء الأسرة الثمانية ، فلم يعد يتسع لألكترون آخر ، فإذا كان للعنصر تسعة ألكترونات ، اتخذ التاسع مركزاً له في مدار ثان في غلاف الذرة ، وهكذا حتى تمتلىء الأسرة الثمانية في المدار الثاني ، ثم في المدار الثالث ، فالرابع إلى النهاية ، ثمانية ثمانية . واتحاد العناصر بعضها يتمشى على أساس هذا الترتيب في السطح ، ذلك أن اتحاد العناصر يتم بواسطة الاتحاد بين الكتروناتها ، فإذا كان عدد ألكترونات العنصر أقل من ثمانية في سطح الغلاف ، فإنه يستطيع أن يستقبل عنصراً آخر في ضيافته ، أما الذي في طبقته الخارجية ثمانية ألكترونات فلا يستطيع أن يستقبل أحداً في ضيافته ، فالذي في طبقته الخارجية سبعة كهارب يستطيع الاتحاد بعنصر آخر في طبقته ألكترون واحد ، والذي في طبقته الخارجية ستة ألكترونات يتحد مع الذي في طبقته الخارجية ألكترونان ، وهكذا .

١٥ — ولولا قوانين الحرارة ؛ لما تبردت الأرض ولما كانت صالحة للحياة .

١٦ — ولولا الجبال ؛ لتناثرت الأرض ، ولما كان لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة .

١٧ — ولولا أن في الأرض أرزاقها ، لما استطاعت الحياة أن تبقى .

- ٧ -

هذه كلها مقدمات للحياة ، إنها مقدمات أوصلت إلى نتيجة ، وكل مقدمة من هذه المقدمات لا يمكن أن تكون مصادفة في حساب الاحتمالات إلا بنسبة ١ إلى أرقام خيالية جداً . وإننا نرى أن كل مقدمة من مقدمات الحياة في هذا التمر[illegible] أن تكون على ملايين الأشكال الأخرى ، ولكن واحداً فقط من

هذه الممكنات هو الذي اختير ، والمقدمة الثانية يمكن أن تكون على ملايين المحتملات ، ولكن واحداً فقط هو الذي اختير ، وبتضافر هذه المختارات من بين هذه الممكنات كلها ؛ وجد الجو المناسب للحياة ، ثم كانت الحياة بأنواعها وأجناسها وتعقيداتها ، فهل يمكن تعليل هذا كله بغير الإرادة التي ترجح وجود ممكن على ممكن آخر ؟

- ٨ -

إنها الإرادة فقط .

ولنعد مرة أخرى إلى ما قاله علماؤنا من قديم :

إن كل شيء في هذا الوجود يمكن أن يكون على صفة ويمكن أن يكون على غيرها ، ويمكن أن يكون في زمان ويمكن أن يكون في آخر ، ويمكن أن يكون في جهة وأن يكون في جهة أخرى ، ويمكن أن يكون في مقدار ويمكن أن يكون في مقدار آخر ، وإرادة الله وحدها هي التي يمكن أن يعلل بها ترجيح أحد وجوه الاحتمال ، حتى كان هذا الكون على أتم نظام وأكمله ، وكل شيء فيه على أجمل ترتيب وأروعه .

- ٩ -

وأخيرا :

إن الذين يقولون بأن حوادث هذا الكون كلها وليدة المصادفة ، إنما يعطون لهذه المصادفة علماً محيطاً وإرادة كاملة وقدرة مطلقة ، تعلم ، وتريد ، وتقدر ، وهي في كل ذلك تعمل بحكمة أكثر مما لو اجتمعت عقول البشر جميعاً ، بنسبة ذكاء لا متناهية .

وإن بداهة العقل تحكم أنه حيث وجد الإحكام ؛ كان العلم والإرادة

والقدرة والحياة، وحيث وجدت هذه الصفات؛ كانت الذات التي تقوم بها هذه الصفات.

إن القلم الذي تكتب به والذي تشعر أنه أعد خصيصاً لكي تكتب به يد الانسان، ومخزن الحبر الذي أعد فيه لغاية، والغطاء والثقب الموجود فيه اللذان أعدا لحكمة، والنحاسة التي تعلقه بها في جيب سترتك، وتجويف إبرة الكتابة، وهذا العظم الذي فيها بخطوطه ذات الفائدة و .... هذا القلم الذي فيه هذه الأشياء المجتمعة؛ لو حاول إنسان أن يقنعك بأنه وليد مصادفة وليس وليد علم الانسان، وإرادة الانسان، وقدرة الانسان، وحياة الانسان، وذات الانسان، فإنك لا شك تحمقه أو تجهله؛ فكيف يخطر ببال، أن الانسان، هذه الآلة الضخمة، والمعمل العظيم؛ صاحب جهاز الهضم، وجهاز الدوران. وهذه الشجرة ذات الجذور والأوراق، والساق بنسغها الصاعد والهابط، وما يكون فيها من تنفس وتفاعلات وتشكلات وإنتاج زهر وثمر. «معمل أدق تركيباً من كل ما صنعه عقل الانسان». وعالم الذرة بما فيه من طاقات وتحركات وتركيبات، وما ينتج عنه من تفاعلات، وآلاف الأمثلة من أمثال هذا وملايينه.

كل هذا وليد مصادفات ؟!. وهل يكون العقل الذي يقول بهذا علماني الاتجاه ؟!. وهو يتحدى كل قواعد العلم.

«قُتِلَ الانسان ما أكفره» (عبس : ١٧) .

«أو لم يَرَ الانسان أنا خلقناه من نطفةٍ فإذا هو خصيم مبين» (يس: ٧٧).

* *

الظاهرة الثالثة

ظاهرة الحياة

- ١ -

إن القصد من دراسة هذه الظواهر هو الوصول إلى الله ، والإيمان به ، وذلك بتحكيم قواعد العقل في ذلك، وعندما ندرس ظاهرة ما ، فإننا نريد دراسة الجوانب التي تشير إلى الله فيها . حيث إن في كل ظاهرة جوانب لا تعد ولا تحصى تدل على الله .

إننا نقول هنا في مقدمة هذه الظاهرة ، لأن بعض الناس يتوهمون أن التفكير في الكون ، ودراسة ظواهره بعمق ، وترتيب المقدمات على النتائج ، والوصول إلى الحقائق ، ونبذ الأوهام ، والقضاء على الخرافة ، والتمسك بالقانون الذي أوصلت إليه التجربة . كل هذه المعاني مما لا يتفق مع الفكر الديني .

ولئن وجد هذا عند ديانات خاطئة ، ومذاهب باطلة ، فلا يصح هذا في الدين الحق ، ولن يوجد أبداً . لأن الحق لا يتعارض مع الحق . فإذا كان الدين حقاً ، فلا بد أن يكون كل أصل فيه ، وكل فرع من فروعه ، منسجماً انسجاماً تاماً مع الحقيقة التي قام عليها البرهان ؛ وإلا فإن نصاً واحداً من نصوص الدين ، يثبت تناقضه مع الحقيقة القاطعة ، كاف لأن يزعزع الثقة في الدين كله .

- ٢ -

ولما كانت ظاهرة الحياة من الظواهر التي كثر الأخذ والرد حول بعض جوانبها ، كان لابد من أن نذكر بعض القواعد التي تتحدث عن بعض حقائق الاسلام ، حتى لانقع في التباس ؛ مع ملاحظة أن هذه الجوانب ليس لها علاقة في موضوع دلالة ظاهرة الحياة على الله ؛ فنقول :

١ - إن الاسلام فرض على الناس الفكر والبحث ، وآيات القرآن في هذا المعنى كثيرة :

« أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » (الأعراف : ١٨٥) . « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » (يونس : ١٠١) « أو لم يتفكروا في أنفسهم ؟ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » (الروم : ٨) .

٢ - إن الاسلام فرض على الناس العلم ، والآثار الواردة في الحث على العلم كثيرة، وكذلك الآيات التي تبين أن العالمين بالكون أعرف بالله: « ومن آياته خَلْقُ السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين »(الروم : ٢٢)« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً ، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانها ، وغرابيبُ سودٌ . ومن الناس والدواب والأنعام مختلفٌ ألوانه ، كذلك إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ » (فاطر : ٢٧ - ٢٨) .

٣ - ومن البديهي بعد هذا ، أن ما وصل إليه الفكر والعلم يفترض على المسلم أن يقول به ، ولايقول بخلافه ، وقد يحدث أن يوجد بعض المسلمين الجاهلين ، وحتى ممن ينتسبون إلى العلم ، من يعارض بعض الحقائق العلمية ، ولكن في هذه الحالة يبقى رأيهم شخصياً ، وهم فيه مخطئون ويؤاخذهم على ذلك

عامة المسلمين وعلماؤهم . ولقد قال الإمام الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة) حاملا على علماء الدين ، المنكرين للحقائق العلمية ، كمعرفة وقت الكسوف والخسوف وغيرها :

(ومن ظن أن المناظرة في إبطال هذا من الدين ، فقد جنى على الدين وضعّف أمره ؛ فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة ، فمن يطلع عليها ويتحقق من أدلتها ، ثم يقال له : إن هذا على خلاف الشرع ، لم يسترب فيه ، وإنما يستريب في الشرع ، وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه ، أكثر من ضرره ممن يطعن فيه ، وهو كما قيل : عدو عاقل خير من صديق جاهل) .

إنه ليس من المعقول أن يأمرنا الله عز وجل بالبحث والعلم والنظر والمعرفة ، ثم يحرم علينا أن نأخذ بنتائج هذا العلم والبحث والمعرفة ، بل على العكس إذا أمرنا بالفكر أمرنا بالأخذ بنتائج الفكر وهكذا ...

٤ — ولكن إذا كان الاسلام ديناً علمياً والمسلم علمي التفكير والاتجاه ، وهدفه أن يصل إلى الحقيقة العلمية فليس معنى هذا أن يقبل الظن ، أو الفرضية ، أو النظرية على أنها حقيقة علمية . إن المسلم ينبغي أن يقف أبداً على أرض من صخر في عالم الفكر . إن الله الذي حرم علينا أن لا نذعن للحقيقة ، لم يرض لنا أن نقبل شيئاً دون برهان، أو نعتبر الفرضية والنظرية حقيقة ، فنأخذ بها على أنها مسلمة .

« ولا تقفُ ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً » (الاسراء : ٣٦) . « إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً » (النجم : ٢٨) . « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (النمل : ٦٤) . «ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين»

(الأحقاف : ٤) . « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الانفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى » (النجم : ٢٣) .

وهذا هو الفارق الكبير بين العقلية الاسلامية، والعقلية الأخرى ، العقلية الإسلامية عقلية علمية متثبتة ، لا تقبل شيئاً دون برهـــان ، ولا تضع في صف الحقائق إلا ماقام عليه الدليل القاطع، وذلك على عكس العقلية الأخرى التي تشتط أحياناً ، فتصف ما ليس علمياً بأنه علمي وتؤمن بـه وكأنه قطعي ؛ رغم ضعف البرهان أو إمكان انهياره ، إن العقل المسلم كما يرفض ألا يكون علمياً ، كذلـك يرفض أن يكون : حدسياً ، أو ظنياً ، أو متوهماً.

- ٣ -

ومذ قيام الاسلام كدين ، تفتح العقـل المسلم على الحياة والعلم والتجربة ، وبدأ في حل ألغاز الكون بعقلية تريد أن تعرف كل شيء وتخضع الكون كله للتجربة ، وتستنتج قوانينه المودّعة فيه ، فقامت الحضارة الاسلامية أزهى مـــا تكون الحضارة ، متدرجة نحو علم أكثر وكشوف أكثر ، وممـا لا شك فيه تاريخياً أن لقاح الفكر الاسلامي التجريبي، هو الذي ولد العقل الغربي التجريبي، الذي قامت - كثمرة من ثماره - الحضارة العلمية والصناعة الغربية، وإذا حدث في العالم الغربي أن اصطدمت الحقائق التي محصتها التجربة بالدين الذي كان سائداً هناك ، فالذنب ذنب الدين المحرّف المبدّل الذي لا يصمد أمام الحقيقة .

ولكن هذا الشيء الذي حدث هناك لم يحدث عندنا قديمـاً أو حديثاً ، ولا يمكن أن يحدث؛ لأن الحقيقة لا تصادم الحقيقة، بل تدعمها . والدين الحق دين الله، والكون خلق الله ، ولا يمكن أن يتعارض ما خلق الله مع ما أخبر الله عنه .

ولذلك كانت ظاهرة من أعجب ما عرف العـالم ؛ وهي أن النص القرآني

وسع في حال تعرضه لقضية كل حقيقة كشف العلم عنها في هـذه القضية ، وسيسع كل حقيقة يمكن كشفها فيها ، وسنرى في بحث الإعجاز القرآني كثيراً من الآيات التي تعطي هذا المعنى بشكل واضح وصريح ، مثبتين كيف أن الحق لايعارض حقاً . ولكن هذا لايعني أبداً أنه كلما قام إنسان ، فقال قولاً أن نحمّل القرآن هذا القول ، أو نتأول القرآن لصالح هـذا القول ، إن القرآن أمنع من أن يكون تابعاً فقد أنزله الله ليُتّبَعَ لا ليَتّبِع . إن القرآن والحقيقة العلمية لا يتناقضان ، ولذلك فإذا ما ثبتت الحقيقة العلمية ثبوتاً كاملاً ؛ فهم النص القرآني الذي له علاقة بهذه الحقيقة على مقتضاها ، بل في هذه الحالة يكون النص القرآني اسبق لتقريرها، وإن غفل عن معناه الحقيقي النـاس قروناً؛ نتيجة لقلة معرفتهم في الكون .

- ٤ -

وقد ذكرنا هـذه المقدمات لأن دارس ظاهرة الحياة لا بد أن يطالبنـا بتوضيح الرأي الصحيح في نظرية التطور؛ كنظرية تعلل تنوعات الأحياء،وظهور الانسان ، وإليك ما نقوله في هذا الموضوع :

١ ــ إن القول بأن إنساننا الحالي الذي أتى من أب واحد ، وأم واحدة ، كان متحدراً من قرد خطأ ، لاشك فيه ولا ريب ، نقول هذا بلغة العلم ولغـة القرآن ، ولا يتناقضان .

أما بلغة القرآن فلأن الله يقول : « إن مَثَلَ عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » (آل عمران : ٥٩) ويقول : « بدأ خلق الانسان من طين » (السجدة : ٧) ويقول الرسول ﷺ : « إن الله عز وجل ، خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قـدر

الأرض ، فجاء منهم : الأحمر والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن ، والطيب والخبيث ، قال الترمذي :حديث حسن صحيح .

وقال عليه الصلاة والسلام :« لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح، عطس، فقال: الحمد لله ، فحمد الله بإذنه ، فقال له ربه : رحمك الله يا آدم ، اذهب إلى أولئك الملائكة – إلى ملأ منهم جلوس – فقل : السلام عليكم ... فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم رجع إلى ربه فقال : إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم ».

وأما بلغة العلم :

١ – إن التاريخ كله ، كل سِفْر فيه ، وكل حجر من أحجاره ، وكل رواية يتناقلها الأبناء عن الآباء تذكر أن أبا البشر آدم .

٢ – الفوارق الكبيرة بين الانسان والقرد أو أي حيوان آخر ، تثبت أنه لا صلة توالدية بين الانسان الحالي وأي حيوان ، هذه الفوارق التي تبدأ من الناحية الجسمية وتنتهي عند الأخلاق ، وبين ذلك الفكر والعلم والإرادة .. الخ.

وهذه القضية هي التي جعلت حتى بعض أنصار داروين « كوالدس » يقول : (إن الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الانسان ، ولا بد من القول بخلقه رأساً) وقال « فرخو » : (إنه يتبين لنا من الواقع أن بين الانسان والقرد فرقاً بعيداً ، فلا يمكننا أن نحكم بأن الانسان من سلالة قرد أو غيره من البهائم ، ولا يحسن أن نتفوه بذلك) .

٣ – إن اكتشاف الكروموسومات (الصبغيات) وهي العامل في انتقال الصفات الوراثية ، جعلت العلماء يتحرجون بادعاء ، أن الانسان منحدر من قرد، إذ الكروموسومات في الشمبانزي ٤٨ وفي الإنسان ٤٦ ، وذلك أن هذه المرى الملونة ، لها عدد ثابت في كل نوع من إنسان أو حيوان ، حيث بها يختلف النوع ويتميز الجنس .

وإذا كان العلم والقرآن يقولان بما أسلفنا ، فلا كلام لغيرهما ، بل ولو شك العلم وقال القرآن؛ لما كان عاقل إلا مع القرآن ، وذلك لأن الله الذي خلق الانسان ؛ أعلم به كيف خُلق .

« ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » (الكهف: ٥١)

أما فيما يتعلق بأنواع الحياة الأخرى ، فالذي يبدو أن العلماء الذين أيدوا داروين ، ليسوا أكثر من العلماء الذين عارضوه ، وبمجرد أن تكون القضية فيها أخذ ورد بين العلماء ، تبقى في حدود النظريات ، ولا ترقى إلى المستوى العلمي المتين .

وإليك بعض أقوال العلماء الاختصاصيين في هذا الموضوع والذي قبله ، يقول « وولتر أدوار لامبرتس » أخصائي علم الوراثة : (وقد اتضح لي كثير من الحقائق ، فعلم الوراثة مثلاً لم يقدم لنا دليلاً على صحة الفرضين الأساسيين اللذين أقام عليهما « تشارلز داروين » نظريته في نشأة الأنواع ، وهما :

١ ـ أن العضويات الصغيرة في كل جيل من الأجيال ، تنزع دائماً إلى أن تختلف اختلافات طفيفة عن آبائها في جميع الاتجاهات الممكنة .

٢ ـ أن التغيرات المفيدة تورث في الأجيال التالية ، وتتراكم نتائجها ، حتى ينتج عنها تغيرات جسيمة .

والواقع أن أقصى ما يمكن أن يتم من التغييرات في النباتات والحيوانات، يمكن أن يتحقق سريعاً عن طريق الانتقاء والتربية ، ويؤدي التلقيح الذاتي في النباتات ، أو زواج الأقارب في الحيوانات ، إلى إنتاج أفراد ضعيفة إلى حد كبير ، ولا تتغير في جميع الاتجاهات كما ذكر داروين ، إلا عندما تصيبها بعض الطفرات ، وهي قليلة الحدوث .

وتعتبر هذه الطفرات على قلتها ، الأساس المادي الذي يبني عليه علماء التطور تفسيرهم لظاهرة التطور ، ولكن هل يمكن أن تكون الطفرات حقيقة وسيلة للتطور ؟ إن الدراسة الطويلة المتصلة لهذه الطفرات في كثير من الكائنات؛ وبخاصة في ذبابة الفاكهة المساة (دروسوفيلاميلانوجستر) تدل على أن الغالبية العظمى من الطفرات ، تكون من النوع المميت . أما الأنواع غير المميتة منها فإن التغيرات المصاحبة لها ، تكون من النوع الذي يؤدي إلى التشويه ، أو على الأقل من النوع المتعادل الذي يحدث تأثيرات فسيولوجية تضعف من قوة الفرد . فمن الصعب إذن أن يؤدي تجمع هذه الطفرات الوراثية ، إلى التغيرات اللازمة لنشأة أنواع جديدة ، تعتبر أكثر تقدماً ورقياً من أسلافها . وقد تؤدي الطفرة في بعض الحالات النادرة إلى تحسين صفة من الصفات ، كما يحدث في جناح الدروسوفيلا ، ولكن اجتماع هذه الصفة مع بعض الصفات الأخرى ، التي تطرأ على الجناح ، يؤدي إلى تكوين حشرات أقصر عمراً وأقل قدرة على الحياة ، ولنسلم جدلاً بحدوث طفرات نادرة تصحبها تحسينات تبلغ ١٪ فكم تحتاج مثل هذه الطفرات من الأجيال ، لكي تتراكم ويظهر أثرها وينتج عنها نوع جديد . لقد وضح (باتو) في كتابه التحليل الرياضي لنظرية التطور : أن تعميم صفة من الصفات ، عن طريق الطفرة ، في سلالة من السلالات ، لايمكن أن يستغرق أقل من مليون جيل من الأجيال المتتابعة . وحتى لو سلمنا بقدم الأحقاب الجيولوجية كما يقدرها الجيولوجيون ، فمن الصعب أن نتصور كيف أن حيواناً حديثاً نسبياً مثل الحصان ، قد نشأ من سلفه الذي كان عدد الأصابع في قدمه خمساً ، في الفترة من العصر الحجري حتى الآن) .

ويقول ليكونت دي نوي : (إن كلمة حلقة كلمة ذات أهمية كبرى في تاريخ الكائنات الحية ، إذ لايمكن إثبات ، أن شكلاً ما من الكائنات يشكل حلقة حقيقية ، وقد يكون ذلك ممكناً في بعض الحالات، ولكنه ليس مؤكداً.

وعلى أي حال يمكننا أن نقول : إنه ليس هناك شكل يعيش حالياً وهو سلف مباشر لشكل آخر ، فالانسان لم ينحدر عن القرد . أما بين المستحاثات ، فإن كثيراً من الأشكال التي تدعى أشكالا وسطية، ليست سوى محاولات غير ناجحة التكيف ، وقد تكون معاصرة أو سابقة أو تالية للأشكال الانتقالية الحقيقية . أهـ .

وإن الحلقة التي يقدمها بعضهم كأم حلقة متكاملة من حلقات التطور ، هي حلقة روابط التسلسل عند الحصان ، إذ قدموا ستة أشكال وسطية ، تبتدىء من الميرا كوثيريوم والايوهيبوس من العصر الإيوسيني منذ حوالي (٥٠) مليون سنة، وتنتهي بالحصان الحالي، ولكن هذه الأشكال الوسطية تبدو وكأنها ظهرت فجأة ، وحتى الآن لم يتمكن من معرفة الجسر الذي يربط بين هذه الأشكال الوسطية بسبب نقص المستحاثات ، ولكن حتى في حالة ثبوت هذا؛ فليس في ذلك دليل على ماذهب إليه داروين . إذ أن الحصان بقي حصاناً .والمراد أن يؤتى بالدليل على أن الحصان أصبح جملا) .

ويقول « ليكونت دي نوي » كذلك : (منذ البداية تلاحظ وجود روابط وفروق أساسية بين الحيوان والنبات ، فالسائل المغذي في الحيوانات هو الدم ، ودم الحيوانات العليا يحتوي على مادة أساسية هي عبارة عن صباغ أحمر ، يدعى بالهموغلوبين كبيرة جداً ومعقدة للغاية ، ويختلف تركيبها بين حيوان وآخر ، الوزن الذري الأدنى (٦٩٠٠٠) ، يقارب الهيموغلوبين في تركيبه الكيميائي، ذلك الصباغ الموجودفي النباتات والاشنيات، والذي يدعى باليخضور، الوزن الذري (٩٠٤) وبينما يتصف الهيموغلوبين بوجود الحديد في ذرته ؛ فإن اليخضور يحتوي على جوهر من المغنزيوم ، ومما يزيد في تعقيد المسألة أن الدم في بعض مفصليات الأرجل والرخويات والحيوانات الدنيا ، يحتوي على صباغ يختلف

وزنه الذري تبعاً للأنواع بين (٤٠٠,٠٠٠) و (٦,٧٠٠,٠٠٠) ويحتوي على جوهر من النحـــاس بدلاً من الحديد والمغنزيوم (بعض أنواع الحلزون مثلاً) فكيف تم الانتقال الكيميائي من صباغ لآخر ؟

يجب أن نعترف بصراحة أنه من المستحيل بيان ذلك) .

(إن بعض الأشنيات الزرقاء تحتوي على العنبكوسيانين، بينما الأشنيات الخضراء تحتوي على الكلوروفيل ، ولا أحد يستطيع أن يثبت أن الأشنيات الخضراء اشتقت من الأشنيات الزرقاء ، لأن الفرق بين الاثنين كبير جداً ، وليس هناك شيء يستطيع أن يعلل هذا الانتقال ، لأن البيئة التي يوجد فيهـــا النوعان مشتركة ، فلا يعلل الانتقال بتغير بيئة) .

(لندع جانباً إغراء القول : بأن أشياء كثيرة قد تحدث خلال (١٠٠) مليون سنة . فإذالم يحدث شيء في سنة واحدة؛ فليس هناك مايدعو - بضرب ما يحصل ببليون أو ١٠٠ مليون مرة - لأن نقول بأن شيئاً سيحدث في نهـاية ذلك الزمن ، فيجب أن تتوفر دائماً نقطة أو عدة نقاط بدء مهما كانت صغيرة، لتصبح المسألة ممكنة) أ هـ .

لقد نقلنا هذه الأقوال ؛ لنبرهن على أن نظرية التطور ، ليست إلا من قبل الفرضيات التي لم يقم عليها برهان قاطع ، ولولا أن الصهيونية العالمية ، والشيوعية العالمية ، كل واحدة منها تتبناها ، لهوى في النفس كامن؛ لنقضت من زمن نتيجة الحملات العلمية المركزة التي قام بها آلاف من العلماء عليها ، إن بروتوكولات حكماء صهيون، تذكر أنها هي التي مهدت لنجاح داروين، وقصدها من ذلك تحطيم الأديان في أنفس البشر غير اليهود .

والشيوعية تتمسك بها - كتمسك لابد منه ولو باطلاً - لإثبات المادية الجدلية . أما موقفنا نحن المسلمين من هذه القضية . فهو الذي ذكرناه سابقاً كموقفنا تمامـــاً

من كل شيء : ما قام عليه البرهان قبلناه ، وإلا توقفنا فيه إذا كان النص القرآني محتملا . أما إذا جزم النص القرآني وشك العلم ، فنحن مع النص جزماً .

لقد أمرنا الله أن نبحث عن نشأة الحياة :

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » (العنكبوت: ٢٠).

« أو لم يروا كيف يُبدىء الله الخلق ثم يعيده »(العنكبوت : ١٩) .

ولقد أمرنا أن ننظر كيف وجدت الأحياء :« أفلا ينظرون إلى الإبـــل كيف خلقت » (الغاشية : ١٧) .

والله وحده عنده العلم الشامل المحيط « قال : فمـا بال القرون الأولى ؟ . قال : علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » (طه : ٥١ – ٥٢) . فما أخبرنا عنه من ذلك لا يكون غيره حقاً ولا يكشف العـلم عن سواه ، وقد ذكرنا ما قال في هذه القضية . والآن نبدأ في دراسة ظاهرة الحياة لرؤية الله فيها وهو المقصود من هذه الدراسة ، فنقول :

إن ظاهرة الحياة تدل على الله من أربعة جوانب :

١ – نشأتها .

٢ – تنوعاتها .

٣ – الانسان .

٤ – الأخلاق .

كل جانب من جوانب هذه المعاني يدل على الله دلالة كاملة ، ورغم كل المحاولات التي بذلت لإثبات أن هذه المعاني، يمكن أن تكون دون أن يكون الله خالقها ؛ فإن الحقيقة بقيت سافرة دائماً « إن الله هو الخالق » .

- ١ - ٢

نشأة الحياة وتنوعاتها .

إن الملحدين يقولون : إن الحياة بدأت خلية بسيطة ، أو مجموعة خلايا ، ثم بدأ التكاثر يعمل عمله ، والتطور يعمل عمله ، حتى وصلت الحياة إلى ما وصلت إليه الآن ، ولكن هل لهم على هذا من برهان ؟ إن أكبر برهان – لو كان – هو أن يصنعوا الحياة ؛ خاصة والعناصر التي تتركب منها الأحياء معروفة ، ونسبها معروفة ، وأجهزتها معروفة ، وكل شيء فيها معروف ، وكل شرط تحتاجه الحياة يمكن أن يتوفر في المصنع ، فمها كانت الظروف الأولى التي ولدت فيها الحياة يمكن أن نقدرها ونوجد ظروفاً مثلها ، ولكن حتى لو حصل هذا ؟ أيقول الذي صنعها: إنها وجدت من غير شيء ؟ أم يقول: إنها وجدت بعلم الانسان وإرادة الانسان ، وقدرة الانسان ؟.

إن الله عز وجل يتحدى الذين يؤمنون بغيره إلهاً مهما كان نوع هذا الإله : طبيعة كان ، أو إنساناً ، أو صنماً . أن يخلق هذا الإله المزعوم ذباباً :

« يا أيها الناس ضُرِبَ مثل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله، لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب . ما قدّروا الله حق قدره » (الحج : ٧٣ – ٧٤) .

ولقد سار الانسان في الطريق ليجرب حظه في هذا التحدي، لا ليصنع ذباباً، بل ليصنع ما هو أقل من الذباب ؛ فماذا كانت النتيجة ؟ لقد كانت ما يلي :

حاولت روسيا أن تبرهن على إمكانية نشأة الحياة كيماوياً ، وذلك – في زعمها – كدليل تثبت به مذهبها الإلحادي ، وكان أن كلفت بهذا الموضوع

« أوبارين » رئيس المعهد الكيميائي في الاتحـاد السـوفياتي ، وطلبت منه أن يتفرغ للبحث في أمر واحد، وهو مدى إمـكانية إيجاد الحياة عن طريق التفاعـل الكيميائي ، وبعد عمل متواصل قارب عشرين عاماً، أعلن حوالي سنة (٦٢) عن انتهائه من دراسة هـذا البحث ، وأعلن عـن النتيجة التي توصل إليهـا ، في تقرير رسمي أذاعته جميع وكالات الأنباءفي العالم إذ ذاك ،وهي أن العلم الكيميائي عاجز عن إيجاد الحياة في المختبر . والعلم لا شأن له إلا بالمادة المحسّة .

وبدلاً من أن يعترف أن الله هو خالق الحيـاة ، أجاب على سؤال كانت صيغته :

هل التفاعل الكيمي في المادة قادر على بعث الحياة ، كما انبعثت الحيـــاة الأولى منذ ملايين السنين وعلى الصورة التي ادعاها أرنست هيكل ؟

– إن هذا ممكن ولكن في كواكب أخرى غير كوكبنا هذا .

وهذا تهرب واضح من السؤال حتى لا يحرج ؛ وإذن لِمَ لم نستطع صناعـة الحياة وكل شيء متوفر ؟

والواقع أن عامة الذين لا يؤمنون بالله يتهربون من هذا الموضوع بمثل هذه الادعاءات .

إن الحياة قد جاءت من بعض الكواكب في شكل جرثومة انسلت دون أن يصيبها تلف، وبعد أن بقيت زماناًغير محدود في الفضاء، استقرت على الأرض، ومن ثم تسلسلت الحياة عن تلك الجرثومة، أو يقولون: إنها وصلتنا عن طريق نيزك أصاب أرضنا .

متن هذا الكلام عدا عن كونه لا يفسر لنا علمياً – تبعاً لقوانين الوراثة – ما نجده من أحياء، فهو غير معقول كذلك . إذ كيف استطاعت هذه الجرثومة أن

تبقى حية في درجة الصفر المطلق في الفضاء ، وإذا استطاعت البقاء رغم ذلك ، فكيف نجت من الإشعاع الكثيف ذي الموجة القصيرة الذي يقتل أمثالها ، وإذا بقيت حية رغم ذلك فكيف وجدت لنفسها المكان الملائم ، وكيف وجد هذا الاتفاق المدهش في الظروف ، حتى توالدت فبدأت الحياة ، وكم من السنين استغرقت هذه الرحلة حتى وصلت ، وفي الحالة الثانية — حالة النيزك — كيف سلمت رغم الاشتعال الذي يحدث عند ما يصطدم النيزك في جو الهواء .

وإذا سلمنا بإمكان هذا كله ، يبقى سؤالنا دون جواب ، كيف بدأت الحياة على ذلك الكوكب الأول ؟

إن الخلية الواحدة على بساطتها ، ينبغي أن تقوم بجميع وظائف الحياة : من تغذية، وتنفس، وطرح ، وحرارة معينة، ونمو وتكاثر، وانقسام، وحركة، وتأثر وإفراز ، وتلاؤم مع البيئة . ولذلك فإن الخلية من التعقيد بحيث لا تقل أبداً عن أي كائن حي آخر ، ومن نوادر الاعترافات العلمية قول (بخنر) الذي يعتبر من أشد المؤيدين لمذهب النشوء . ومن أكثر الماديين غلواً ومن الذي اتهموا داروين بأنه كان مصانعاً لرجال الدين :

« إن البت في أمر التولد الذاتي للكرية الأولى التي نشأ عنها الأصل الأول غير متيسر ، لأن الأحوال المناسبة لتولد الكريات الأولى تولداً ذاتياً غير معروفة ، والكرية ذاتها على بساطتها ذات بناء وتركيب يمتنع معه صدورها من الجماد مباشرة ، بل إن ظهورها من الجماد في نظر العلم معجزة ليست أقل بعداً عن العقل من ظهور الأحياء العليا من الجماد رأساً » .

ويلوح أحياناً للعلماء بصيص من أمل ، فيجمع بالكثير منهم الخيال ، ها نحن قد كدنا نصنع الحياة؛ ثم لا يجدون إلّا السراب ، ومن آخر ما سمعناه في ذلك قولهم يوم اكتشفوا حمض D.N.A : إن سر الحياة أصبح بأيدينا . ولكن

بعد الضجة الكبيرة ، كان الجواب القاطع أن الحياة من صنع الله . وإليك القصة كاملة :

إن بعض أمراض التبغ تتولد من حمات مركبة من هيولينات نووية . تقاوم مبيدات الجراثيم ، وتتصف بخواص حيوية تمكنها من التكاثر والتمثل ، ولقد تأكدت في السنوات الأخيرة حقيقة جديدة ، ألا وهي أن هذه الحمات ليست إلا حموضاً نووية خالصة ، تحيط بها مادة هيولينية ، وأن الحمض النووي المكون لها هو أحد نوعين إما D.N.A أو R.N.A ولقد أمكن الآن معرفة بنية كل من هذين الحمضين معرفة تامة ، رغم تركيبهما المعقد جداً ، وذلك بفضل استخدام الأشعة فوق البنفسجية والمجهر الألكتروني ، ووسائل كيماوية كثيرة أخرى .

وتبين أن هذا الحمض يتألف من ثلاثة عناصر رئيسية ، تؤلف وحدة صغيرة تتسلسل وتتكرر بشكل شريط أو سلسلة طويلة ، وتقابل تلك السلسلة سلسلة أخرى مثلها ، تعطف أمامها وتلتف إحداهما حول الأخرى بشكل حلزوني ، ويربط بين السلسلتين بمسافات متساوية الأبعاد ، روابط هيدروجينية تجعل شكلها النهائي كشكل سلم لولبي أو درج مئذنة . وأوضح العالمان « واطسون وكريك » . أن عدد دورات الشريطين الحلزونيين في الحمض يزيد عن ألف دورة ، وأن طول الشريطين أو طول الحمض لا يتجاوز ٣٠ إنغستروما . ولقد قدر أحد العلماء أننا لو بسطنا الشريطين الحلزونيين ، ووصلنا نهاية أحدهما بنهاية الآخر ، لكان طولهما خارج النواة متراً ونصف المتر . ولكي ندرك تعقيد هذا الحمض نذكر الوزن الذري لأحد نوعيه R.N.A وهو ١,٥ × ١٠^٦ ومع ذلك اكتشف الحمض ، واستطاع العالم (اوشوا) من اصطناعه وأخذ على ذلك جائزة نوبل .

لقد صيغ هذا الحمض وبلور ، فكان من ذلك حمض لا قدرة له على التكاثر هو مثل الحمض D N.A الذي وجد في التبغ والحمات ، كانت صيغة الحمضين واحدة ، ولكن الفرق بينهما عظيم جداً وهو الفرق بين الحياة والموت . هو الفرق بين الصنم العديم الروح ، والجسد الحي الآهل بالروح .

وبعد فهذه هي النتيجة :

إن المادة لا تعقل حتى القوانين التي تطبق عليها ، فالذرات إنما تطيع قواعد الألفة الكيماوية ، وقانون الجاذبية ، وتأثير درجة الحرارة . أما الحياة فهي ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئاً سوى آثاره .

: « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (الإسراء : ٨٥) .

* * *

يقول (ليتز) : إن كل خلية من البروتين تتألف من سلسلة فيها بضع مئات من الحلقات ، وإن كل حلقة فيها هي تركيبة من ذرات، قوامها حمض من الأحماض النشادرية ، وهي أحماض يبلغ المعروف منها نحو العشرين ، ويجوز أن يقع كل منها موقعه على اختلاف في النسبة والترتيب ، ولكننا لا نراها في بعض الأنسجة إلا على ترتيب واحد ، ونسبة واحدة ، بغير شذوذ ولا اختلاف فهل نستطيع أن نتخيل مبلغ الدقة في هذه الإصابة بين احتمالات الخطأ التي لا تحصيها أرقامنا المألوفة .

يكفي لتقريب هذه الدقة من الخيال أن نذكر أن الحروف الأبجدية في لغات البشر كافة ، لا تتجاوز الثلاثين، ويتألف من تراكيبها المتغيرة كل ما تلفظ به الأمم من الكلمات والعبارات . فإذا كانت خلية البروتين في حجمها الخفي ،

قابلة لأضعاف هذا التكرار ، ثم لا تشاهد فيها إلا كلمة واحدة ، في ترتيب واحد لا يتغير، فقد عرفنا على التقريب معنى تلك الإصابة في التوفيق والتركيب. لتقريب هذا الخيال نقول : إن الضوء يصل من طرف المجرة إلى الطرف الآخر في ثلاثمائة ألف سنة، فإذا أردنا أن نشبه إصابة الخلية في تركيبها بمثل مفهوم ، فهذه الإصابة تضارع إصابة الرصاصة التي تنطلق من الأرض فتصيب هدفاً في نهر المجرة بحجم عين النور ولا تخطئه مرة من المرات ، وهذا على فرض أن حلقات الخلية خمسون فقط وليست بضع مئات .

ولكن البروتين ليس هو كل شيء، بل هو جزء من خلية ، والخلية جزء من عضو ، والعضو جزء من جهاز، والجهاز جزء من جسد، والجسد كله من بروتيناته إلى خلاياه، إلى أعضائه، إلى أجهزته، متداخل تداخلاً هائلاً، ومنسجم انسجاماً تاماً ومتفاعل مع بعضه تفاعلاً تاماً .

والجسم الحي الذي تتكرر فيه هذه المعجزات كل لحظة من لحظاته ، لا تزال فيه بقية للعجب لعلها أعجب من كل ما تخيلناه ، وهي أن هذه الذرات الخفية تتجمع وتتفرق وتلتئم وتنفصل على نحو يضمن لها التجدد ، أو يضمن الدوام للحياة . فيتألف كل حي من جنسين ، وتخرج من كل منهما خلية واحدة يتكون منها حي جديد ، وتنقسم هاتان الخليتان تارة أزواجاً وتارة أخرى فرادى ، على الوضع المطلوب في المرحلة المطلوبة ، ويتفق عددها في كل نوع من الأنواع الحية بغير زيادة ولا نقصان ، وينطبع كل حي على عادات وغرائز تسوقه إلى التناسل في موعده المقدور ، فيبني العش قبل أن ينسل إن كان من الطيور . ويفارق الماء الملح إلى مداخل الأنهار أو الخلجان قبل أن ينسل إن كان من سمك البحار . ويمتلىء بالشوق إلى شريكه في التوليد قبل موعد التوليد على اختلاف الأنواع والأجناس .

إن التعقيد الماثل في ظاهرة الحياة ، والانسجام الماثل فيها ، ووضع كل شيء في محله ، إنما يدل دلالة واضحة على علم وإرادة وقدرة وراءها ؛ بشكل غريب عند الأمي ، وعلمي مقنع عند العليم .

أن تنشيء المادة لنفسها أسماعاً وأبصاراً وأفئدة . إن هذا ليس من حالات المادة التي يقبلها العقل بغير تفسير ، وكل ما قيل في نفي العجب من تركيب الجسم الحي – لأننا نرى الآلات المادية تعمل بنظام ، وتوزع العمل فيها لمقصد معلوم ، وهدف معلوم – هـو العجب . فالعجب في هذا التشابه بين الآلات والأجسام الحية ، لأن الآلات لا تنشأ بغير صانع ، ولا يغنينا تعليل أعمالها بقوانين الحرارة والحركة عن تجاوز القوانين إلى إرادة المهندس المسخر لهذه القوانين .

وقد كان الناس ينظرون بالعين المجردة إلى أعضاء الجسم الحي ؛ فيعجبون وسعهم من العجب لدقتها، وتساند أجزائها، وتعاون وظائفها، وسريان عوامل النمو فيها بمقاديره الضرورية ، على حسب السن والنوع والفصيلة . سواء في جسم الانسان أو جسم الحيوان ، أو جسم الحشرة ، أو جسم النبات ؛ فأحرى بهم أن يعجبوا أضعاف ذلك العجب بعد أن عرفوا بالمجاهر والتحليلات مم تتألف تلك الاعضاء، وعلى أي نحو تتساند تلك الوظائف ، وتبين لهم أن هذه الأعضاء البارزة للعيان مجموعة من ذرات لا ترى الألوف منها بالعين المجردة ، وأن كل ذرة منها تقع في موقعها من الجسم وتعاون بقية الذرات فيه ، كأنها على علم بها وبما تطلبه ، ولا تضل واحدة منها عن طريقها لمرض أو عجز طرأ عليها ، إلا تكفل سائرها بإصلاح خطئها وتقويم ضلالها .

* * *

وفي الأرض بلايين البلايين من الاحيـاء ؛ وفي كل واحد منهـا من العجب ما لاينقضي ، وهاك مثالاً يبين لك كثرتها، يقول « لـترجون زمرمان » أخصائي التربة :

(أما التربة المنتجة الخصبة فهي تربة حية ، يعيش بهـا عدد لايحصى من الـكائنات الدقيقة ، من حيوان ونبات ، وقد تصل نسبة الـكائنات الحية الـتي تعيش بهذه التربة الحصبة إلى مايقرب من ٢٠٪ من المادة العضوية التي بها ، وقد يصل عدد هذه الـكائنات الحية إلى بضعة بلايين في الجرام الواحد من التربة) أهـ .

هذه البلايين الهائلة من الأحياء تنقسم إلى آلاف من الأجناس والأنواع ، كل جنس وكل نوع له خصائصه ، ومزاياه، وشكله، وصورته، وطرق تغذيته ، وطرق حياته ، وكل فرد من أفراد كل جنس فيه خصـائص الجنس وكل تعقيدات الحياة

:« وما من دابة في الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » (الأنعام : ٣٨) .

ولكل رزقه ، وغذاؤه ، وغريزته التي يبحث فيها عن الرزق ، وأجهزته التي يهضم بها رزقه .

:« ومامن دابةفي الأرض إلاعلى الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، كل في كتاب مبين »(هود : ٦)« مامن دابة إلاهوآخذ بناصيتها »(هود : ٥٦) .

« والله خلق كل دابة من ماء : فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربـع ، يخلق الله ما يشاء » (النور : ٤٥). « وبث فيها من كل دابة » (البقرة : ١٦٤) .

إن المنطق الواحد المعقول ، أن الله الحي هووحده خالق الحياة :« والذين

يدعون من دون الله لايخلقون شيئاً وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون »(النحل: ٢٠ - ٢١). ولايستويان في منطق العقل :« أفمن يخلق كمن لا يَخْلُقُ أفلا تذكَّرون (النحل : ١٧) ولايستويان كذلك عقلياً : إنسان نسب الحياة إلى المصادفة ، وآخر ينسبها إلى الله .

:« ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس ؛ لهم قلوب لايفقهون بها ، ولهم أعين لايبصرون بها ، ولهم آذان لايسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ،أولئك هم الغافلون » (الأعراف : ١٧٩) .

وتأمّل بعد هذا في هذه القصة ، قصة أصغر مخلوق وأبسط مخلوق ؛ لترى أن وراء سر الحياة الله، ابتداءاً وانتهاءاً ، نشأة وانواعا.هذا المخلوق هو الأميبا : عندما نذهب إلى المعمل ، ونفحص قطرة من ماء المستنقع تحت المجهر لكي نشاهد سكانها ، فإننا نرى إحدى عجائب هذا الكون : فتلك الأميبا تتحرك في بطء ، وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها، فإذا به داخلها ، وإذا به يتم هضمه وتمثيله داخل جسمها الرقيق . بل إننا نستطيع أن نرى فضلاته تخرج من جسم الأميبا قبل أن نرفع أعيننا عن المجهر .

فإذا ما لاحظنا هذا الحيوان فترة أطول ، فإننا نشاهد كيف ينشطر جسمه شطرين ، ثم ينمو كل من هذين الشطرين ليكون حيواناً جديداً كاملاً . (وقالوا : إن انقسام الخلية لايتم إلا إذا لامستها خلية أخرى ؛ إذن هذا عملية زواج بين ذكر وأنثى) تلك خليةواحدة تقوم بجميع وظائف الحياة التي تحتاج الكائنات الكبيرة الأخرى في أدائها إلى آلاف الخلايا أو ملايينها . ولاشك أن صناعة هذا الحيوان العجيب الذي بلغ من الصغر حد النهاية تحتاج إلى أكثر من المصادفة ، مع ملاحظة أنه موجود في كل مكان في العالم ، وهو الآن على ما كان عليه من أول ما وجد .

وإذا دققت في هذا الحيوان البسيط ، تجد داخله الجبلة « البروتوبلازم » ذا التركيب المائي ، والحيوية الفياضة ، مركز الحركة والحياة في جميع الكائنات الحية ، يتحرك حركة عجيبة . فالأميبا لاتسبح في الماء ولاتطفو على سطح قطرة الماء أو تندفع في جوفها ، ولكنها تتحرك كما لو كانت تنسكب أو تسيل . أما جسم الأميبا فهو كتلة عارية من البروتوبلازم ، وهو يختلف عن الخلية النباتية ، في أنه لايحيط به من الخارج جدار صلب ، بل مجرد غشاء رقيق يحدد جسمه ، وكلما تحركت الجبلة « البروتوبلازم » في اتجاه من الاتجاهات ، أطاعه ذلك الغشاء ، وتحرك معه في نفس الاتجاه .

وبذلك يتغير شكل الحيوان ، وتتكون له زوائد لا تلبث أن يتغير شكلها بعد قليل ، وبهذه الطريقة يتحرك الحيوان . مستعيناً بهذه الزوائد التي تشبه الأقدام ، والتي تسمّى بسبب ذلك الأقدام الكاذبة ، ومن الممكن استخدام القوة المكبرة العظمى في المجهر لمشاهدة الحشوة (السيتوبلازم) عند اندفاعه في الأقدام الكاذبة ، ولكي تشاهد أن جسم الحيوان يتكون من طبقتين من الجبلة (البروتوبلازم) تختلفان في كثافتهما . أما إحداهما فهي كتلة شفافة مائية دائمة الحركة ، وأما الأخرى فهي كتلة هلامية نصف صلبة تحيط بالطبقة السابقة إحاطة تامة .

كيف تتحرك الأميبا ؟ ماهي الأسباب التي تقوم بعمليات التغذية؟أجوبة كثيرة تبقى غير كافية ، مؤثرات كثيرة تؤثر على حركة الجبلة داخل الخلايا ، ولكنها مجرد مؤثرات سطحية بسيطة ، لا تستطيع أن تبين لنا لماذا تبقى حركة الجبلة دائبة لا تنقطع ، حتى عندما يزول أثر هذه المؤثرات . ومعنى ذلك أن جانباً على الأقل من أسباب هذه الظاهرة يرجع إلى الجبلة ذاته . فمن المحال إذن أن نفسر ظواهر الحياة على أنها مجرد استجابات لبعض المؤثرات الخارجية .

وبهذه المناسبة نحن نعلم أنه عندما تنشطر خلية حية إلى نصفين ، بطريقة التشريح الدقيق ، بحيث تكون النواة في أحد القسمين دون الآخر ، فإن القسم الخالي من النواة يموت بعد قليل . وقد أخفقت جميع الجهود التي بذلت للاحتفاظ به حياً ، وعلى ذلك فإن النواة هي التي تنظم العمليات الحيوية في الخلية وتسيطر عليها ، فإذا زال هذا الإشراف توقفت الحياة .

وهكذا في الخلية التي تشكل أبسط حيوان، ترى قدرة الله كما تراها في أعقد الأحياء .

« أيُشرِكون ما لا يَخلُقُ شيئاً وهم يُخلَقون »(الأعراف : ١٩١).

إن الكون مخلوق لا خالق، ومن أعطى الكون أو الطبيعة صفة الخلق، فقد أشرك بالله جهلاً وسفاهة .

فنشأة الحياة لا تعلل إلا بالله، ووجود الأنواع والأجناس لا يعلل إلا بالله، وما في الأحياء من عجب لا يعلل إلا بالله ، وكل جزئية من هذا كله آية على الله .

- ٣ - ٤ -

الإنسان والإعجاز .

الإنسان من أعظم ما خلق الله ، لذلك كان من أبدع ما يُعرف الله بـه ولذلك فبقدر ما يعرف الإنسان نفسه يعرف ربه ، وبقدر ما يجهل نفسه يجهل ربه ، لذلك كانت الحكمة التي تقول : « من عرف نفسه عرف ربه » من أصدق الكلم التي صاغها عقل الإنسان .

وأهم شيء في الانسان ، صفاته الأساسية التي لا يمكن تعليلها إلا بأنها قبس

من أمر الله ، ثم أخلاق الانسان ، والصفات الأساسية للانسان: العلم ، والإرادة والقدرة .

إن المادة لا تعرف نفسها ، ولا تعقل غيرها ، والمادة لا يمكن أن يكون لها خيار ، وقدرتها قدرة محدودة بإطار ، أما الانسان فيعلم ويريد تبعاً لهذا العلم، وقدرته تنفذ على ضوء هذه الإرادة . إن استعداد الانسان للعلم ظاهرة من أعظم ظواهر الوجود ، إذ الانسان وحده من هذه المخلوقات التي نراها ، عنده استعداد ليعرف كل شيء ، ويحلل ويركب ويقايس ويعلل ، ويقبل ويرفض ، ويتصور، ويستطيع أن يفكر حتى يعرف مجهولاً على ضوء معلوم ، ويرسم للحياة طريقاً أو طرقاً ، ويبني حضارة أو يهدمها .

ويتبع ظاهرة العلم ، ظاهرة التعبير حين يعبر الانسان عن كل هذا : تارة أدباً ، وأحياناً كلمة ، وأخرى فلسفة ، وطوراً منطقاً، وبهدوء أو بشدة،وبعاطفة أو بعقل .

إن علم الانسان وبيانه يدلان مباشرة على الله :(**الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان) (الرحمن : ١ — ٤) . (اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم) (العلق ٣ — ٥)** .

والمادة لاتريد ، بل تخضع لإرادة . وهذه الإرادة لا تتغير ولا تتبدل سننها. والحيوان إن كانت له إرادة فهي إرادة غريزة ضمن أُطر معينة . إطار الحياة والموت ، إطار الرزق والسفاد ، أما ما عدا هذا فهو في بهيمية غامضة ، لايعرف معنى الإرادة حتى يريد .

ولكن الانسان عنده طاقة إرادة ، يرجح بها بين المتقابلين ، ويختار من بين الضدين . كلامه بإرادة ، وحركته بإرادة ، وعمله بإرادة ، إن الانسان

وحده يملك حرية الاختيار . بشكل لا مثيل له بين أجزاء العالم المحسوس . يختار الكذب فيكذب، ويختار الصدق فيصدق ، ويختار الخراب فيخرب ، والإعمار فيعمر ؛ طاقة هائلة من الإرادة ، يرافقها طاقة هائلة من القدرة .

إنه بقدر ما اعطي الانسان من طاقة إرادة ، أعطي قدرة عظيمة ، ومظهر هذه القدرة؛ إمكانية التسخير والاستفادة من كل شيء . إنه يستطيع أن يستنبت الأرض إذا لم تنبت ، وأن يحصد إذا زرع ، وأن يركب متن الريح والماء، وأن يأكل لحم الطير والسمك ، وأن يستخرج من كل شيء ماينفع نفسه ، وأن يترك من كل شيء مايضره.

إن علم الانسان ، وإرادة الانسان ، وقدرة الانسان ، تدل بشكل واضح على تميز الانسان على المادة ، وأن المادة لا يمكن أن تعطيه علماً ولا إدراكاً ولا قدرة ولا إرادة ، بل الله وحده هو الذي يملك أن يعطي الانسان هذا : « وعلم آدم الأسماء كلها » (البقرة : ٣١). « هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً» (البقرة ٢٩) . « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » (هود : ٦١). « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون » (الملك : ٢٣). (ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفتين . وهديناه النجدين » (البلد :٨ – ١٠).

وأما الأخلاق؛ فإنها تلك المشاعر التي تنتج سلوكاً، ومحل هذه المشاعر عالم النفس عند الانسان ، إنها عالم كامل لا نعرف عنه إلا آثاره التي نحسها في أعماقنا، وتظهر تارة على صفحات وجوهنا ، أو على ألسنتنا أو أيدينا .

مشاعر الرحمة والقسوة ، العفو والانتقام ، الذلة والعزة ، العدل والظلم ، الأمن والخوف ، الحرب والسلم ، الغضب والحلم ، الجبن والشجاعة ، الكبر والتواضع ، الجبروت واللين ، الهداية والضلال ، القبض والبسط ، الانخفاض والارتفاع ، التجمع والتفرقة ، الحب والبغض ، الحقد والغل، الكراهية والحسد،

والإحساس بالجمال والإخلاص للمثل ، ومشاعر تفيض بها النفس وكأنها أمواج بحر كبير .

نساء فنبكي، ونسر فنضحك، ونعشق ونبغض من عشقناه ،ونرجو ونيأس.

إنها النفس أغمض مافي الإنسان . إن تَجَمُّع بروتونات أو ألكترونات لا يكوّن إحساسات أخلاقية .

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » (الاسراء : ٨٥).
« ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها » (الشمس : ٧ - ٨) .

إن على الانسان ألا يخدع نفسه ، فلو فكر الانسان بعمق ، ونظر بإنصاف إلى نفسه – سواء كان عالماً أو جاهلاً – فماذا يرى ؟إن الله يخاطب الانسان في القرآن : **« وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون » « الذاريات : ٢٠ – ٢١)** ففي النفس آيات كثيرة كلها تشير إلى أن الله هو الذي خلق .

وجود النفس نفسه آية ، وكل صفة من صفاتها الخيرة أو الشريرة آية . وعدا هذا ؛ ففي النفس آيات أخرى تدل على أن في هذا الكون عجائب غير مادية ، تجعل الانسان قريباً جداً مما وراء المادة . فالتنويم المغناطيسي والطرح الروحي والتلباثي،وحوادث الرياضة الروحية التي يبصر أصحابها بلا إبصار .... هذه المعاني كلها تدل على أن هناك شيئاً غير المادة في هـــذا الوجود ، وحوادث قراءة الأفكار وما يحيط بها؛ كلها تشير بعمق إلى أن الانسان ليس مادة فحسب، وأنه عندما يموت الانسان لا يكون قد تعطل جزء من جهازه المادي ، فقط بل مع هذا يكون الانسان قد فقد شيئاً آخر ، هذا الشيء المفقود هو الانسان نفسه ، وعاد التراب إلى التراب .

وأخيراً ، إن نشأة الحياة دليل على الله ، وتعقيدات الحياة دليل على الله ، وتنوع الأحياء دليل على الله ، ومركز الانسان في هذا الكون بصفاته العليا دليل على الله، وفي النفس البشرية – أخلاقها وعجائبها – دليل على الله، وهذا وحده كاف لتعرف به الله . فكيف إذا اجتمع معه ما ذكرنا سابقاً وما سنذكر لاحقاً ؟ ! وكيف إذا اجتمع مع هذا وحي يتنزل ومعجزات تتحدى ؟ ! وكيف إذا اجتمع مع هذا رسل صادقون صالحون أتقياء أذكياء بررة ؟ !

فهل يبقى بعد ذلك كله لكافر من حجة أو سبيل ؟ ! إلا حجة الجهل وسبيل الهوى المؤدي إلى البوار ثم النار ؛ ألا لعنة الله على الكافرين .

* * *

الظاهرة الرابعة

ظاهرة الإجابة

هذه الظاهرة لكل واحد منا تجربته الخاصة فيها ، فما من واحد منا نحن البشر سواء في ذلك المؤمنون منا وغير المؤمنين ، إلا مرت عليه فترة فيها شدة وفيها اضطرار وفيها قلق ، توجه فيها إلى الله بقلب كله انكسار ورجاء وأمل ، وإذا بالكرب يزول ، والشدة تنتهي ، ويجعل الله من بعد عسر يسراً ، ويعود الرخاء بعد الضراء . ولكنك تجد قلوباً بقيت شاكرة متذكرة زاد إيمانها ، وأخرى عادت إلى غفلتها متناسية ما ذكرته ساعة المحنة .

إن الأمر المسلَّم فيه ، أنه ما من نفس إلا وتلجأ إلى الله ساعة الخطر ، وقد كرر القرآن هذا المعنى كثيراً ، فقال : « قل أرأيتَكُم إن أتاكم عذاب الله ، أو أتتكم الساعة ، أغيرَ الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إياه تَدعون فيكشفُ ما تدعون إليه إن شاءوتنسَون ما تشركون » (الأنعام ٤٠ - ٤١).

(وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضرَّه ، مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضرمسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » (يونس : ١٢) .

« وإذا مسكم الضر في البحر ضلَّ مَنْ تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفوراً » (الاسراء : ٦٧) . « هو الذي يسيركم في البر والبحر، حتى إذا كنتم في الفلك وَجَرَيْنَ بهم بريح طيبة وفرحوا بهاجاءتها

ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم احيط بهم دَعَوا الله مخلصين له الدين ، لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق » (يونس : ٢٢ – ٢٣) .

« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخُفْيَةً لئن أنجانا من هذه لنكوننّ من الشاكرين . قل الله ينجّيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » (الأنعام : ٦٣ – ٦٤) .

وقد جرت سنة الله أن يجيب المضطر إذا شاء، كائناً من كان حتى ولو كان كافراً بالمعنى الاصطلاحي مادام قد توجه إليه .

« أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشفُ السوء » (النمل : ٦٢) .

والحوادث التي أخبر أصحابها عمّا جرى لهم فيها مما له علاقة بهذه الظاهرة كثيرة لاتعد ، فما من إنسان إلا وله قصة أو قصص ، أنا وأنت وهو . وإليك أمثلة نختارها من بين آلاف أمثالها مما يجري كل يوم ، تدل على أن الانسان ليس وحده ، فالله يرعاه إن كان أهلًا للرعاية ، أو يستجيب له إن دعاه بقلب مضطر ، أو يكله إلى نفسه ، وما أكثر خسارة من وكله الله إلى نفسه ؟ وفي كل حالة نجد رعاية غير متوقعة ، أو استجابة غير عادية ، فإن الانسان يلمح آثار قدرة الله واستجابته . وفي كل حادثة من هذا النوع يقع دليل على وجود الله عز وجل. وهذه نُكتُولٌ لها علاقة بهذا المعنى :

١ – نشرت مجلة المختار « ريدر دايجست » في عدد أكتوبر ١٩٤٤ تحت عنوان « ألا تؤمن بالصلاة والدعاء » هذه الحادثة التي صاغتها كما يلي :

« واليوم تتدفق الأدلة التي لاتنقض من كل ناحية ، على فضل الدعاء وقوته ، وليس مما يدهش أن يتوجه الناس في ساعة الشدة والحاجة إلى قوة خارجية ،

وإنما الشيء الوحيد المدهش في هـــذا ، هو أن نراه مدهشاً ، وما يصنع هؤلاء المصلون « الداعون » من الجنود والبحارة والطيارين ؛ إلا كما صنع « لنكولن » الذي قال في أحلك أيام الحرب الأهليـــة : « بغير معونة من الله الذي هو معي لا أستطيع أن أنجح ، وبهذه المعونة لايمكن أن أخفق » .

ولا يكاد يوجد فوق الأرض مخلوق لاينطوي على الشوق الروحاني أو على شعور باطن مبهم ، بأن هناك قوة يتوجه إليها بفطرته .

حدث لما اضطر الماجور « ألن لندبرج » – من وستفيلد بولاية نيوجرسي – وهو يقود إحدى القلاع الطائرة للنزول في البحر في طريقه إلى أستراليا ، أن ساد الاعتقاد بأنه هو والتسعة الذين معه قد فقدوا ، وفي هـــذا يقول الماجور :

تمكنا من الخروج على طوفين من المطاط وكدنا لا نفعل ، ولم تكن معنا كسرة من خبز أو قطرة من ماء ، وكان رجال الطائرة كلهم قلقين إلا الشاويش « البرت هرناندز » المدفعي الخلفي ، وقد عكف من فوره على الدعاء والابتهال ، وسرعان ماراعنا بقوله : إنه يعرف أن الله قـــد استمع إليه وأنه سيساعدنا ، وظلوا يهيمون تحت شمس محرقة وقد تشققت شفاههم وورمت ألسنتهم ، فعجزوا عن مجاراة « هرناندز » في التهليل والتسبيح ، ولكنهم كانوا يدعون مع ذلك ، وبعد ثلاثة أيام وقبل دخول الليل لمحوا معالم جزيرة صغيرة ، وما لبثوا أن شاهدوا ما لم يكن يجري لهم في خلد ، فأقبلت عليهم ثلاثة زوارق فيها رجال عراة الأجساد ، واتضح أن منقذيهم من أهل استراليا الأصليين ، وهم صيادون سود الأجسام منفوشو الرؤوس ، وقد جاؤوا من داخل البلاد على مسافات مئات الأميال ، وقالوا أنهم دفعوا بدافع غريب إلى تغيير اتجاههم ، فجاؤوا بزوارقهم إلى هذا الشاطىء المرجاني الذي لاسكان فيه ، وهناك لمحوا لندبرج وزملاءه .

٢ – أذاع راديو دمشق في ١٩٦٥/١/١٠ الساعة الثالثة إلا ربعاً بعد الظهر ، نقلاً عن مجلة الأبحاث الطبية الصادرة في انكلترا ، حادثة نشرتها المجلة المذكورة بتوقيع الطبيب الذي جرت معه الحادثة . والقصة أن شاباً بقي مريضاً بمرض مزمن مدة ثلاثة عشر عاماً وأعيا الأطباء دون أن يصل إلى نتيجة ، وقد دخل عليه كآخر طبيب ، الطبيب الذي يروي القصة ، وبعد أن أتم فحصه رأى أنه لاأمل منه ، وهناك سأله المريض بلهجة اليائس : لا أمل يادكتور ؟ فقال الدكتور :

هناك أمل واحد في السماء ، فجرب أن تدعو ، ألا تعرف أن تصلي ؟ ولأول مرة يدعو الشاب الذي دام مرضه ثلاثة عشر عاماً ، وعندما زاره الطبيب بعد أسبوع ، وجد المريض معافى، وقد شفي من مرضه الذي لم يستطع الأطباء أن يعالجوه منه .

٣ – وحدثنا شاب مصري ممن شاركوا في المقاومة السرية التي جرت في مصر في قناة السويس من ١٩٥١ – ١٩٥٤ عن ثلاثة من المقاومين ، خرجوا لينسفوا سكة الحديد في منطقة مكشوفة . . وكانت الليلة مقمرة ، والسماء صافية ، والأرض صحراوية تُرى حركات من فيها عن بعد ، ويعرضهم هذا لنيران العدو ومطاردته ، فقال أحد الثلاثة وهم ماضون : يارب ولاغيمة ، فلم يلبثوا أن شاهدوا سحابة تجلل وجه القمر ، فا نتشر الظلام ، مما ساعدهم على القيام بمهمتهم ورجعوا بسلام . .

وكلنا سمع ماحدث يوم الهجوم على مصر أثناء العدوان الثلاثي ، إذ اشتعلت النيران في مدينة بورسعيد ، وضاق الأمر بالناس ، ودعَوا ربهم مخلصين ، فكان المطر الذي أطفأ الحرائق يومذاك . .

٤ – والناس في كل مكان يتحدثون ، فمامن مسلم إلا وله تجربة خاصة

في هذا الأمر . تضيق به السبل ، فيلجأ إلى الله لجوء المضطر ، فتكون الاستجابة ويحصل الفرج . ومن أبرز مظاهر هذا المعنى قصص الاستسقاء حيث يلجأ المسلمون إلى الله في حالة القحط . ولهم في ذلك آداب منها : التوبة ، ومنها الصلاة والدعاء . ومنذ زمن رسول الله ﷺ ، يتحدث المسلمون عن عجائب حصلت ، وعن أناس مجابي الدعوة استجيب لهم ، ومن تتبع حوادث ذلك وجدها صحيحة بحيث تتحدى أدق مقاييس النقد التاريخي .

إن ظاهرة الاستجابة ظاهرة تتجدد دائماً كلما توفرت شروطها ، وهي تدل بشكل قطعي على وجود ذات عليا ، تسمع نداء المنادين وتوسلات المتوسلين ، وإذا شاءت تجيب المضطر أنى كان وكيف كان ، مسلماً كان أو كافراً . وتجيب المسلم في كل الأحوال إذا كان متمتعاً بشروط الاستجابة ، وكان في الاستجابة خير له ، ولم يكن غيرها أحسن إليه منها : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ ، فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لعلهم يرشُدون » (البقرة : ١٨٦) .

« وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » (المؤمن : ٦٠) .

استجب لله يستجب الله لك .

ونحيل من شاء التوسع في هذا الموضوع إلى كتاب « الفرج بعد الشدة » للقاضي التنوخي . ففيه ما يكفي . وإنما اختصرنا في هذه الظاهرة . لكثرة الحوادث فيها وظهورها ، ولأن في البحث الثاني عن « الرسول » ﷺ نماذج كثيرة عنها .

* * *

الظاهرة الثامنة

ظاهرة الهداية

إننا عندما ندرس الكون نرى فيه هداية كاملة، من أصغر ذراته إلى أكبر أجرامه ، ومن أبسط أشكاله إلى أعقد مظاهره ، فكيف نعلل هـــذه الهداية ؟ كيف وجدت ؟ كيف استمرت ؟ كيف ثبتت ؟ إن هناك جواباً واحداً يقدمه العقل على ذلك، هو وجود ذات هادية .

١ ــ ثعبان الماء متى اكتمل نموه ، هاجر من مختلف البرك والأنهـــار ، قاطعاً آلاف الأميال في المحيط ، قاصداً إلى الأعماق السحيقة جنوب « برمودا » حيث ملتقى ثعابين الماء من كل أنحاء العالم ، وهناك يبيض ويموت. أما صغارها تلك التي لا تملك وسيلة تتعرف بها على أي شيء ، سوى أنها في مياه قفرة فإنهـــا تعود أدراجها ، وتجد طريقها إلى الشاطىء الذي جاءت منه أمهاتها . ومن ثم إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة ، ولذا يظل كل جسم من المـاء آهلاً بثعابين البحار ، ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في المياه الأوربية أو العكس.

٢ ــ الزنبور يصيد الجندب النطاط، وينخزه بإبرته في مكان مناسب بحيث يفقده وعيه مع بقائه حياً كنوع من اللحم المحفوظ ، فلا يكثر السم فيه بحيث يميته ، أو يسمم لحم الأولاد إذا أكلوا منه ، ولا يقلله بحيث يبقى محتفظاً بوعيه فيفر ، وبعد ذلك يحفر له حفرة في الأرض، ثم تأتي أنثى الزنبور وتضع بيضاً في المكان المناسب بالضبط ، ثم تغطي هذه الحفرة وترحل فرحة ، ثم تموت بعد أن

أمنت وسيلة الحياة لأولادها . وهم صغار لا يستطيعون الحركة ، ولا بد أن الزنبور قد فعل ذلك من البداية من يوم وجوده أول مرة وكرره دائماً ، وإلا ما بقيت زنابير على وجه الأرض .

٣ – الجراد البالغ من العمر سبعة عشر عاماً في ولاية نيو انكلاند، يغادر شقوقه تحت الأرض حيث عـاش في ظلام مع تغير طفيف في درجة الحرارة ، ويظهر بالملايين في ٢٤ مايو من السنة السابعة عشرة تماماً ، بحيث يضبط مواعيده للظهور في اليوم تقريباً بهداية يعجز عنها الانسان لولا أنه يستعمل « التقويم » .

٤ – خطر لعالم أمريكي أن يستفرخ البيض دون حضانة الدجاج ، بأن يضع البيض في نفس الحرارة التي ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له ، فلما جمع البيض ووضعه في جهاز التفريخ ، نصحه فلاح أن يقلب البيض إذ أنه رأى الدجاجة تفعل ذلك ، فسخر منه العالم ، وأفهمه أن الدجاجة إنما تقلب البيض لتعطي الجزء الأسفل منه حرارة جسمها الذي حرمه ، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة . .

واستمر العالم في عمله حتى جاء دور الفقس وفات ميعاده ولم تفقس بيضة واحدة ، وأعاد التجربة وقـد استمع إلى نصيحة الفلاح أو بالأحرى إلى تقليد الدجاجة ، فصار يقلب البيض حتى إذا واتى ميعاد الفقس خرجت الفراريج . وآخر تعليل علمي لتقليب البيض، أن الفرخ حينما يخلق في البيضة ترسب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه إذا بقي بدون تحريك أوعيته ، ولذلك فإن الدجاجة لا تقلب البيض في اليوم الأول والأخير .

بهذه الهداية الكاملة في عملية بقاء الجنس ، يبقى الدجاج في العالم ، لأنه يعلم تماماً ما ينبغي أن يفعله . ولا بد أن ذلك فعلته الدجاجة الأولى حتى استمر جنس الدجاج .

٥ – حيوان الإكسيلوكوب يعيش منفرداً في فصل الربيع ، ومتى باض مات ؛ فالأمهات لا ترى صغارها ولا تعيش لتساعدها في غذائها ودفاعها عن نفسها ، وهي لا تستطيع الحصول على غذائها مدة سنة كاملة ، لذلك ترى الأم تعمد إلى قطعة خشب ، فتحفر فيها حفرة مستطيلة ، ثم تجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ، وتحشو بها ذلك السرداب ، ثم تبيض بيضة ، ثم تأتي بنشارة خشب وتجعلها عجينة لتكون سقفاً لذلك السرداب ، وتصنع بعد ذلك سرداباً آخر ، فإذا فقست البيضة وخرجت الدودة كفاها الطعام المدخر سنة .

٦ – يمتص جذر النخلة العناصر الغذائية في التربة بالشعيرات الجذرية ، وتصعد العصارة بالضغط الأسموزي إلى أعلى ، ويتغذى جذع النخلة بما غلظ من هذه العصارة ، أما الخلاصة فتصعد إلى حيث تغذي الأجزاء العلوية ، وترتفع العصارة الدقيقة لتكون الثمرة . وقمع البلحة هو مصفاتها التي تسمح بمرور المواد الغذائية تماماً إلى الداخل فقط ، وهي التي تكون الحلو من البلحة وغير الحلو من النواة ، والتي منها ينشأ جسم البلحة الطري ، وهيكل النواة الصلب ، وبين الحلو والمر والصلب والطري غلاف شفاف لا يكاد يرى ، ولم يحدث إطلاقاً أن أخطأت نخلة ، فكونت نواة البلحة في الخارج والبلحة في الداخل ، أو كونت البلحة صلبة والنواة طرية .

٧ – الحيوان المنوي يشبه العلق في حركته ، له رأس مفرطح ، وعنق قصير ، وذيل طويل ، ويتحرك بلولبية ذيله ، وقد أُمد بقوة مقاومة ، إذ أنه في الأجواء غير الملائمة تسكن الحياة فيه ويفقد مظاهر نشاطه ، فإذا ما وجد الوسط المناسب عادت له حيويته ونشاطه ، ويستمر في الحياة عدة أيام متوالية في انتظار البويضة التي يدفع بها مبيض الأنثى – وهو جهاز التناسل عندها – ليؤدي إلى إحضانها ، ويتم كل ذلك بهداية منقطعة النظير . إذ لا دخل لأي قوة – كائنة ما كانت

كيماوية أو حيوية أو عقلية أو إدراكية – في توجيه الحيوان المنوي إلى بويضة الأنثى.

٨ – في عملية الرضاع كل شيء يتم بهداية .

تنمو الغدد التي تصنع اللبن مدة الحمل، ويدفعها إلى هذا النمو مواد يفرزها المبيضان ، وفي نهاية الحمل وبدء الوضع ، تتلقى هـذه الغدد من الغدة النخامية الموجودة في قاعدة الجمجمة أمراً بالبدء في صنع اللبن ، وما يكاد الطفل يولد حتى يبحث عن ثدي أمه بهداية لا حد لها ، وعملية الرضاعة عملية شاقة ، إذ أنها تقتضي انقباضات متوالية في عضلات وجه الرضيع ولسانه وعنقه ، وحركات متواصلة في فكه الأسفل ، وتنفساً من أنفه ، ويقوم الطفل بهذا كله بهـداية تامة من أول رضعة لساعة فطامه . وقالوا: إن الرجل نفسه لا يستطيع أن يقوم بعملية الرضاع كما يقوم بها الطفل الذي لا يتجاوز عمره ساعات .

هذه أمثلة قصدنا بها لفت النظر إلى ظاهرة الهداية ، فإذا ما التفت العقل ودرس الوجود كله بعمق، يرى هـذه الظاهرة في كل شيء على الاطلاق ، فهي ظاهرة تنتظم شؤون الكون كله بما فيه من الألكترونات في الذرة ، إلى الذرة ، إلى العناصر ، إلى الأرض ، إلى الشموس ، إلى المجرات بكل حوادثها ، في كل خلية من خلايا الحيوان ، إلى كل جهاز من أجهزته ، إلى كل حيوان من وحيد الخلية، إلى النحلة، إلى الانسان .

: « قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (طه : ٥٠) .

تلك كلمة القرآن وهي كذلك كلمة العقل ، وهي كذلك كلمة العلم :

إن هداية بلا هاد غير مقبولة عقلاً ولا علماً .

إن الله ظهر باسمه الهادي في كل شيء ، ومع ذلك ضل الكافرون عن الله ، وأضلوا قلوبهم ، وهم في ضلالهم مهتدون إلى طرق الضلال والزيغ، إذ أن الانسان

بما أوتي من إرادة واختيار، وبما امتحن به في هذه الحياة كأثر ناتج عن هذه الإرادة، قد ركب تركيباً ظهر فيه اسم الله الهادي بما يتفق مع هذه الحرية في الارادة ومع هذا الامتحان :

« ونفس وما سوّاها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكّاها . وقد خاب من دسّاها » (الشمس : ٧ — ١٠) . « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى »(النازعات : ٤٠—٤١).

إن الكافرين قديماً كانوا يعتبرون الدعوة إلى الله ، وتعليل كل شيء به نوعاً من الافتراء والكذب والأسطورة :« قال : ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم. بل قالوا أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر » (الأنبياء : ٤ — ٥) .

والكافرون اليوم : يعتبرون كل كلام غير كلامهم ، لا يقوم على علم ، أو تظهر منه رائحة الخرافة ، أو فيه معنى الأسطورة . إن التشابه الكامل بين الموقفين في القديم والحديث دليل على وحدة النفس البشرية ، وإن كان المحدثون أكثر فلسفة وأزهى زخرفا ، كما أن فيه دليلاً على نوع من الهداية إلى الضلال ، كهداية المهتدين إلى الهدى ، وذلك ظهور لاسم الله الهادي في عالم الانسان : « وهديناه النجدين » (البلد : ١٠) . « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » (الدهر : ٣) .

إن الكافر يرى أن بإمكانه أن يعلل كل ظاهرة من ظواهر هذا الكون بدون الله ، والذي لا يستطيع أن يعلله الآن يتصور أن باستطاعته أن يعلله في المستقبل ، وبصرف النظر عن كون هذه التعليلات علمية عقلانية أو ظنية حدسية، فإنه مقتنع بها ولا يقبل أي تفسير آخر ولو كان علمياً وعقلياً ، لأن كثرة الاحتمالات عنده لا تبطل ظهور الممكن الواحد ، وتعدد مظاهر الوجود على

أشكال مختلفة يقنعه بأي تفسير يتوهمه بنفسه ، وذلك كأثر من استشعاره لذاته المتصفة بالعلم والقدرة والإرادة والحياة ، وخلع هذه المعاني على الكون متناسياً أن الطبيعة بمجموعها ليس لها علم وإرادة وقدرة وحياة . إنه يقول عن كل شيء يراه : إنه ممكن ؛ ونحن إن لم نقل بإمكانه نكفر (نخرج عن الاسلام) ولكن نقول بذلك ؛ إذا وجد علم الله وإرادته وقدرته ، أما بغير علم ولا إرادة فلا .

إن الله ظهر كثيراً وبطن كثيراً ، ظهوره الكثير جعل المؤمنين به كأنهم يعاينون :(لو كشف الحجاب ما ازددت يقيناً) وبطونه الكثير جعل الكافرين على مثل اليقين بأن الأولين واهمون ، ولا يمكن في حكم العقل إلا أن يكون الله ظاهراً وباطناً بآن واحد : ظاهراً للجنان ، وخفياً عن العيان ؛ إذ ما يظهر للعيان خلقه ، وخالقه يدل الجنان عليه ، لذلك قال الله تعالى : « ومن يؤمن بالله يَهْدِ قلبه » (التغابن : ١١) .

ليس في خفاء الله حجة لكافر على كفر ، وقد رأينا هذا في مقدمة أبحاثنا ، وفي ظهوره الحجة الكاملة على الإيمان ، وإذا كان في ضلال الضالين نوع هداية إلى الضلال ، إذ حرموا أنفسهم الرؤية الصافية فشاهدوا الأمور معكوسة ، فإن في هداية المهتدين الظاهرة الكاملة على الهداية التامة . ولكن كما في هداية المهتدين دليل على ظاهرة الهداية ، فإن في هداية الضالين إلى طرق الضلال دليل عليها كما سنرى بعد ، والجميع يدل على أن هناك ذاتاً هادية .

* * *

إن آيات الله التي تدل عليه واضحة جداً في كل شيء ، ولكن الاهتداء إليها يحتاج إلى إنسانية أكثر ، إلى أخلاق الانسان بشكل أدق : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ،

وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » (الأعراف : ١٤٦) .

إنها الحقيقة التي لا ترد : الكبر والغفلة عن آيات الله هما طريق الكفر ، والخضوع للحق وقبوله واليقظة على آيات الله هي طريق الإيمان . فبمزيد من أخلاق الانسان ، وبمزيد من التأمل ، وبمزيد من طلب الحق ، لا بد أن يصل الانسان إلى الله . فإذا قيل : إن المرجع في الهداية إرادة الله ... « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها »(السجدة:١٣)نقول:إن المرجع في كل شيء إرادة الله، وليس في ذلك عذر لمعتذر أو متعلل أو متهرب أو رام المسؤولية على غيره ، لقد قال الله : « إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم » (التكوير : ٢٧– ٢٨) فقال أبوجهل:ذلك إلينا إن شئنا . فأنزل الله تتمة :« وما تشاؤن إلا أن يشاء الله رب العالمين » (التكوير : ٢٩) وهذا يعني أن مشيئة الله محيطة بكل شيء،ولكن لايعني هذا إلغاء اختيارالانسان ومشيئته .

« يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام » (المائدة : ١٦) .

« يُضِلُّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين » (البقرة : ٢٦) .

إن الله إذا أراد أن يضل إنساناً ظهر له في هذا الوجود كله باسمه المضل ، حتى لم ير في آيات الله في كل خلقه ما يدله عليه ، وكذلك في آياته في القرآن حتى لا يرى فيها آية تدله عليه ، وليس في ذلك إجبار من الله له ؛ بل ذلك لأن الانسان ذاته اختار الطريق الآخر كبراً وظلماً ، فصار يرى الآيات معكوسة ، فما فيه حجة على الإيمان صار يعتبره حجة له على الكفر ، وذلك لما قلنا كاثر من إحاطة هداية الله في الطريقين ، والذي يتحمل المسؤولية هو الانسان ذاته .

تعالى الله أن يسأل تغيير ماسنّ من سننه، وعلى الانسان أن يحقق ماطاب منه ضمن هذه السنن .

* * *

ويقول الكافرون : إن اللهقادر على أن يهدي الناس كلهم إلى مايحب ؛ فلم لم يهدهم ؟

وإن الله قادر على أن يجعل العالم خالياً من كل شر ؛ فلم لم يفعل ؟ يقولون هذا حتى يقولوا أخيراً : كون العالم فيه ضلال وكونه فيه شر ، فذانك دليلان على أن هذا العالم ليس من صنع الله .

ويقولون للمؤمنين : ما دمتم تؤمنون بالقضاء والقدر ، فما نحن فيه من انحراف قدره الله علينا ولا مخرج لنا من قدره ، فهو المسؤول إذن ولسنا المسؤولين ، فلا تلومونا ولو مرة . ألم يقل : « يُضِلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاء » (المدثر : ٣١) .

ونقول : كلمتهم هذه قالها الكافرون من قبل ، ورد عليهم القرآن أيَّ رد :

« وقال الذين أشركوا: لو شاءالله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شيء ، كذلك فعل الذين من قبلهم ، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين . ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت: فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة » (النحل : ٣٥ — ٣٦) .

نفس اللغة القديمة للكافرين استعملها كفار عهد الدعوة الأول ، واستعملها كفار عصرنا الحاضر : « سيقول الذين أشركوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، ولا حرمنا من شيء، كذلك كذّب الذين من قبلهم، حتى ذاقوا بأسنا قل : هل

عندكم من علم فتخرجوهُ لنا، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تَخرُصُونَ » (الأنعام : ١٤٨) .

ترى ما قيمة حجة الكاذبين ؟ يلاحظ في الرد القرآني أنه رماهم بالتكذيب لرسل الله صلوات الله عليهم ، وأنه رماهم بالجهل ، وأن بلاغ الرسل – صلوات الله عليهم – فيه الحجة عليهم .

إنهم نظروا إلى عموم مشيئة الله ولم ينظروا إلى مشيئتهم ، فأرادوا أن يقيموا الحجة على الله بكماله ، فأقام الله عليهم الحجة بمشيئتهم التي استعملوها في غير طريقها الصحيح .

إن ما كتب الله ، وما علم الله، وما أراد الله، لا يسلب الانسان اختياره، كلاهما خطأ عظيم: أن نظن أن الله لا يعلم ماذا سيحدث، أو نظن بأن علمه بما سيحدث يسلبنا اختيارنا . فالعلم كاشف لا مجبر ، وإذا كان علمه لا يسلبنا اختيارنا ، فكذلك إرادته وكذلك قدرته ، فالقدرة تبرز ما خصصته الارادة والارادة تخصص ما سبق به العلم .

إنه من الخطأ أن نفهم قوله: « يضل من يشاء ويهدي من يشاء » (النحل: ٩٣) بأنه يجبر على الهداية ويجبر على الضلال، بل: « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » (الصف: ٥) « قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » (الشمس : ٩ – ١٠) . «إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين » (التكوير : ٢٧ – ٢٩) إن إرادة الانسان موجودة ؛ ولا يعني هذا أن هناك شيئاً يكون خارجاً عن إرادة الله ، وعموم الإرادة الإلهية حق؛ ولا يعني هذا سلب الانسان حريته واختياره .

وأخيراً : لقد خلق الله كل شيء، حسياً كان أو معنوياً ، من الأخلاق الفاسدة إلى الأخلاق الحسنة ، إلى الانسان ، إلى الوجود كله ، وأعطى كل شيء

هدايته ، فالكبر مهتد إلى طريقه ، و كذلك الحسد ، و كذلك الضلال ، و كذلك كل نوع من أنواع الضلال ، و كذلك الهداية ، و كذلك أعواد شجر العنب التي تلتف حول أي شيء تصادفه ، و كذلك الشمس ، و كذلك القمر . وبالنسبة للانسان خاصة : ذاته ، ونفسه ، وجسمه ، وكل شيء فيه مهتد إلى طريقه إذا ترك على سجيته ، ولكن هذا الانسان بما أُوتي من ملكات أهلته للتكليف ، جعل الخير والشر له فتنة : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » (الأنبياء : ٣٥) . ونتيجة لهذا فرض عليه أن يحاول التغلب على كثير من ميوله ورغباته وأهوائه وشهواته ، وأن يكيف ذاته حسب هدى معين ، حدده له الوحي الإلهي ؛ ليقوم بدوره على هذه الأرض ضمن طريق مخصوص .

وعلى هذا فانحراف الانسان عن هذا الطريق ضلال ، وإن كانت فروع هذا الضلال من الهداية التي أعطيت لكل شيء في موضوعه : « وهديناه النجدين » (البلد : ١٠) . ولكن كون الانسان يستطيع أن يتخلى عن هذا الضلال — ولو على حساب متعته — فإنه مفروض عليه أن يعمل كي يحقق معنى الابتلاء ، ولذلك كان : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » . وفي الظاهرة السابعة زيادة بيان إن شاء الله . وإنما قصدنا في هذه أن نشير إلى أن الهداية الكاملة لكل شيء — مخلوق حسي أو معنوي — تشير إلى ذات هادية : « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (طه : ٥٠) فما من شيء إلا وعنده نوع هداية عامة . حتى الأشياء المعنوية خيراً كانت أو شراً ، ولكن الانسان كلف بنوع من الهداية خاص ، وعليه أن يسعى لتحقيقه . والمهم بعد : أن يكون وضح لدينا أن هذه الهداية في كل شيء لا يمكن أن تكون إلا بالله الهادي .

الظاهرة السادسة

ظاهرة الإبداع

أرأيت لوحة رسام قال الناس عنها : إنها أثر عظيم ؟ قل لي : لماذا حكم الناس عليها هذا الحكم ؟ ستقول لما فيها من إبداع في التصوير والتعبير والجو والظلال والتناسق والتفاعل والمعرفة ، بما يثير الإعجاب في نفس المشاهد ، إنك تقول بدهشة أو بإعجاب: لقد أبدع هذا الأثر فلان ، ترى ألم يخطر ببالك وأنت أمام مشهد إبداعي عظيم من هذا الكون،أن تفكر في المبدع الأعظم الذي أبدع هذا الكون ، أو أن الألفة أعمت بصرك عن الرؤية ؟ إنك لو تأملت لوجدت :

أن الجمال والإبداع يبدوان ملازمين لكل شيء في الكون : السحب ، قوس قزح ، السماء الزرقاء ، النجوم ذات الألوان وانتثارها وانتظامها وحركاتها وهندستها ، القمر ساعة طلوعه عند ما يكون بدراً أو هلالاً أو ساعة توسطه قبة الفلك ، الشمس في غروبها وشروقها ، الفجر والأصيل ، روعة الظهر ، كل ذلك آثار إبداع عظيم . إن أعظم فنان هو الذي يستطيع أن يرسم جزءاً مما في الكون للحظة من لحظاته بأمانة ، أما الكون فكل مظهر من مظاهره التي تتكرر ، أو تتعاقب أو تتغير صور من الجمال تثير في النفس كل آن مباهج من الروائع .

كل ورقة من أوراق الشجر منظمة أبدع نظام ، مخططة أجمل تخطيط ، تخطيط وإبداع بقصد ولا بصنع ، تجده على أروع ما يكون في الأزهار ،

بوشاقتها الفاتنة وتصميماتها الرائعة وألوانها الموزعة، تشكل تحافظ كل زهر معه على سمات جماله وتناسق ألوانه ، وإنك لتجد في كل زهرة إحساساً جديداً ، وهي بديعة عندما تجتمع جنساً واحداً، ورائعة عندما تكون أجناساً ، فالورق والزهر والساق والغصون والفروع والثمار ، كلها إبداع عجيب، منفردة كانت أو مجتمعة موصولة أو مقطوعة .

والوادي الأخضر والنهر والأشجار الباسقة ، والصخور والجبال يجلل قممها الثلج ، أو التي تسبغ عليها السماء زرقتهـا من بعيد ، وكثبان الرمال الفسيحة الممتدة في الصحراء ، والتتابع المنسق الفاخر لأمواج المحيط وتلاطمها على أرض الشاطىء ، والهدير والخرير والصفير والزفيف والحفيف ، وصوت الرعد ، ولمعان البرق ؛ أليس ذلك كله جميلًا وبديعاً ومبهجاً حتى عندمـا يخيف ؟ والطيور فوق البحر أو فوق الغـابة أو على الأرض هاربة منك أو مذللة بين يديك ، ألوانهـا المتناسقة ، أشكالها الزاهية ، نقشانها الفاتنة ، تصميمها الجميل ، أصواتهـا العذبة حركاتها الفاتنة ، في كل ريشة منها جمال ، وفي كل شعرة فيها رونق، وفي جناحها ساعة يتـدوـاعـة ينقبض يرتفع أو ينخفض ؛ مـا يجعل القلب يمور شعوراً حبـاً واغتباطاً .

قطع الثلج ذات الأشكال الهندسية المختلفة ، والخطوط البلورية للعنـاصر والمركبات،وألوان العناصر منفردة أو مركبة ، وتركيباتها أجزاءاً وكتلًا ، كروية الأرض ، وسحب المريخ ، ووجه القمر ، وكلف هذا الوجه ، كل ذلك جميل جميل لدرجة مدهشة تحت المجهر أو بالعين المجردة . وفي الجمال جمال ، وفي الغنم جمال ، وفي البقر جمـال ، وفي الماعز جمال ، وفي الكلب جمـال ، وفي الهرة جمال ، وفي كل مـا خلق الله جمال، في مراحه ومغداه في سكونه ومشاه . في حركات السمك وتموجات حشائش البحر في الأعماق،أو تموجات حشائش البر إذا

مر النسيم ، في العظام المكسورة التي تشفى ، في الجرح الذي يلتئم بعد إذ تمزق لحمه ، في دورة الدم ، في القلب الذي يتحطم ، ثم ينجبر بعد كسر ، في حبوب اللقاح ، في النحل تمتص رحيق الزهر ، في تقبيل الفراشة ميسم الزهرة ، في انتقالها إلى ميسم آخر، في نقلها حب اللقاح إلى زهرة أخرى ، في التلقيح ، في التزاوج، في انجذاب القرين إلى قرينه ، في كل شيء إبداع .

إن التناسق الذي نراه في كل مخلوق ، انسجام الأعضاء بعضها مع بعض ، انسجام اللون مع الأعضاء جعل كل شيء في محله، كل ذلك إبداع يشير إلى مبدع.

« الذي أحسن كل شيء خلقه » (السجدة : ٧) . « بديع السموات والأرض » (البقرة : ١١٧) . « ذلكم الله ربكم له الملك » (فاطر : ١٣). إن هذا الإبداع من أجلك أيها الانسان « ألم تروا أن الله خلق لكم ما في السموات وما في الأرض،وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » (لقمان : ٢٠). « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » (إبراهيم : ٣٤) .. إنه من أجلك حتى تعرف ربك بأسمائه كلها ، وتشكره جل جلاله وتعبده بحب وعشق، ولذلك جعل فيك الإحساس بالإبداع ، وحب الجمال ، فكان ذلك من أروع الابداع لو عقل الانسان .

لقد أعطي الانسان قوة الفكر والتصور وبداهة الشعور ، فصار يتذوق الجمال ، ويسرح بخياله من البداية إلى النهاية ، ويتذكر بسرعة البرق آلافاً من لوحات الوجود ، ويخترق بخياله حجب السموات والأرض ، مع الإدراك الذي يجعله يتفاعل مع كل شيء ، فيهوى ويحب ، ويمل ويبغض ، ويصمم تارة للبناء وتارة للهدم ، فيجعل الحياة فناً والمعنى جهازاً .؟ إن في ذلك كله إبداعاً سواء في ذلك باطن الانسان أو ظاهره ، أو ما يحيط به ، وقد يرسم الرسام صورة الجميل فيبدع ، وصورة القبيح فيبدع ، وفي كلتا الحالتين يبقى الإبداع إبداعاً وفي

كلتيهما يكون محسناً ، وفي الكون جميل وأجمل ، وقبيح وأقبح ، ولكن في ذلك كله إبداعاً ، ويظهر الإبداع في ذلك أكثر ، فلن يعرف الجميل إلا بالقبيح ولا الأجمل إلا بالجميل ، وتعدد الصور أكثر إيماءً ، وأبقى تجديداً ، وأدل في القدرة على الإبداع .

فلا يفوتنك يا صاح أن ترى الإبداع ولا تعرف المبدع ، أو تلمس الإحسان وتنسى المحسن ، أو تعشق الجمال ولا يمتلىء قلبك بحب خالق الجمال ، بل ترنم مع الحداة :

عذابُه فيك عَذْبٌ	وبُعْدُه فيك قُرْبُ
وأنتَ عندي كروحي	بل أنتَ منها أحبُّ
حَسْبي من الحب أني	لما تحبُّ أُحبُّ

* * *

الظاهرة السابعة

ظاهرة الحكمة

« قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآياتُ والنذرُ عن قوم لا يؤمنون » (يونس : ١٠١) « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شيء، وأن عسى أن يكون قداقترب أجلهم ، فبأي حديث بعده يؤمنون » (الأعراف : ١٨٥) « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (يوسف : ١٠٥) « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » . (الأعراف : ١٧٩) .

إن الله لا يقبل من المسلم إلا أن يرى في كل شيء آية تدل عليه اعتقاداً ، وندبنا إلى ذلك استشعاراً ، وما لم يصل المسلم إلى هذا المستوى الرفيع، فإنه بحاجة إلى يقظة أكثر، وإلى فكر أكثر ، وإلى ذكر أكثر .

إن يد الله التي خلقت أَرَتْ نفسها في خلقها ، وإرادة الله التي خصصت أَرَتْ نفسها في مبدعاتها ، وحكمة الله ظهرت فلم تخف .

وإن قلباً لم ير آثار الله في كل شيء لقلب أعمى : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور »(الحج : ٤٦). ولعله محل للشفقة « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » (الكهف : ٦) .

لقد أمرنا الله أن ندرس آياته في هذا الكون، والكون ذاته يستلفت النظر، ولقد درسه الكافرون والمؤمنون على السواء، وليس هناك من فارق بين الطرفين في العلم بهذا كثرة أو قلة، ولكن الفارق إنما هو باستعمال العقل وقوانينه للوصول إلى ما وراء الكون، أو بالجمود على رؤية الحس وعدم استعمال العقل والركون إلى التراب.

ولئن أكثر القرآن من ذكر: أن في الكون آيات لقوم يعلمون، أو يتفكرون، فقد أكثر كذلك من ذكر «إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون» (النحل: ١٢). مما يدل على أن تحكيم قوانين العقل شرط لمعرفة آية الله.

وعلى هذا فكل ظاهرة من الظواهر التي نذكرها في هذا الكون، لا ندعي أننا وحدنا نعرفها، فنحن والكافرون مشتركون في هذه المعرفة، ولكن الفارق أننا نعلل وجود هذه الظاهرة بلازمها العقلي الذي لا بد منه، وهم يرفضون هذا التعليل دون دليل؛ كمهندسين وقفا أمام بناء جميل جداً، فكلاهما يستوي في كونه يعرف كل ما في البناء من أجزاء، من معرفته بكيفية الترتيب، إلى معرفته بكيفية التركيب، إلا أن أحدهما جزم أن هذا البناء قد كان دون أن توجد خبرة وعلم وإرادة وقدرة وإبداع وحكمة وذوات تقوم بها هذه الأشياء. والآخر حكم على البداهة بأن مهندساً عالماً حكيماً.. قد أظهر هذا البناء. إن المسألة بكل بساطة هي هذه، وعند ما يناقش الأول عقلياً في الحكم الذي أصدره يقول: إنني فيما يستقبل من الأيام سأكشف كيف قام هذا البناء بنفسه، مع أن العقل ببداهته يحكم أن زماناً أكثر سيعطينا تفصيلات أكثر في أمر البناء، تدلنا على صاحبه بشكل أوسع وأدق، ولن يلغي حكم البداهة أبداً.

والكون كلما تكشف أكثر دل على الله أكثر، وهذه الظاهرة التي ندرسها الآن «ظاهرة الحكمة» خير شاهد على ما قلناه، فالانسان العادي يرى أن في الكون حكمة فيتعرف بها على الله الحكيم، وكلما ازداد علماً، زادت معرفته بهذه الحكمة؛ فما رأينا العلم إلا كاشفاً للحكمة.

وإن أكبر مصيبة ابتلي بها المؤمنون في هذا الزمان، هي دعوى الكافرين العلم حين يكفرون وأن المؤمنين لا يعلمون، وساعدهم على الظهور بهذه الدعوى، أن أكثرية المؤمنين في زمننا أقل علماً بظواهر الحياة الدنيا من الآخرين، ولكنه بدأ العصر الذي يصبح فيه المؤمنون أكثر علماً بظواهر الحياة الدنيا، وبدأوا يثبتون أن مزيداً من العلم يعطي مزيداً من الإيمان.

* * *

قالوا عن الحكمة: إنها وضع الشيء في محله، وبالنسبة للكون بإطلاق، ألا يكون شيء منه يمكن أن يكون أحسن في غير المحل الموجود فيه؟ وهذا واقع الكون، فكل ما فيه على غاية من الحكمة، فليس بإمكان العقل أن يتصوره أحكم مما هو فيه، وادرس كل شيء فيه، أجزاءً وكتلاً، تجد الحقيقة ناصعة تقول: ما أنا عليه عين الحكمة، وهذه أمثلة:

١ - لولا الموت ماذا حدث؟ قالوا: لو أن ذبابتين توالدتا هما وأولادهما دون موت، فإنه بعد خمس سنوات تتشكل طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية ارتفاعها ٥ سم، وهذا جنس واحد من المخلوقات، فكيف إذا كانت المخلوقات كلها تتوالد ولا تموت! ومن هنا نفهم حكمة المرض، وحكمة وجود مسببات الأمراض من جراثيم وغيرها، ويقول قائل: ترى لو كان الانسان يموت بلا مرض أليس أحسن؟ أو لو كان يموت بمرض واحد فمتى أصيب بمرض كانت نهايته فيه؟ وقد غاب عن هؤلاء حكمة وجود الأمل، وحكمة الإنذار، وحكمة الصبر، وحكمة الاعتبار بهذا الواقع.

٢ - ما يخرج من الانسان وحده، كان يمكن أن يملأ الدنيا، لولا وجود أنواع البكتريات والعوامل الكثيرة التي تؤثر في تحويل وإبادة هذا الخارج، ومن

هنا نفهم حكمة وجود كثير من الموجودات التي يتصور الانسان مبدئياً أنــه لا ضرورة لوجودها ، وبالتالي يتوهم أنها موجودة لغير ما حكمة، إنه لو لم يكن في بعض المخلوقات إلا جمالها لكفى الجمال ، ولو لم يكن في بعض المخلوقات إلا أنها تخيف لكفى ذلك حكمة ، إن وجود الخوف من أكبر الحكم ، إذ يعلم الانسان الحذر، وبالتالي ينمي قدراته، ولولم يكن في بعض المخلوقات إلا أنها تريك محلها مع ما قبلهـا وما بعدها لتدلك على التناسق ، لكان ذالـك وحده حكمة ، ولو لم يكن في بعض المخلوقات إلا أنك ترى فيها عجائب خلق الله وقدرته لكفى ذلك حكمة .

٣ - ويقول بعض النــاس : وحتى الشر فيه حكمة ؟ ! وكذلك الألم ؟ ! أليس العدل خيراً من الظلم ، والرحمة خــيراً من القسوة ؟ والرعاية خيراً من التيتم ؟ والإيمان خيراً من الكفر ؟ والقيام بالواجب خيراً من إهماله ؟ وبالتالي فما الحكمة في وجود هذه النقائص وغيرها خير منها ؟

ويصل الأمر ببعضهم إلى أن يسألوا لم خلق الله الشر ؟ وإلى أن يقولوا : إن وجودالشر دليل على « ألا إله » ، لأن الإله ينبغي أن يكون خيّراً، ولا يصدر عنه إلا كل خير .

ونقول : أن نحب معرفة الحكمة في كل شيء ، أو أن نسأل حتى نعرف أو أن نحاول المعرفة ، فهذا شيء لاغبار عليه مع ملاحظة أن القصور في معرفة الحكمة لايعني عدم وجودها . وأما أن نسأل الله لم فعلت ؟ ! فهـذا لا ، ولا يسأل هذا السؤال إلا جاهل بجلال الله وإحاطة علمه وناسٍ محدودية الانسان بالنسبة لعدم تناهي كمالات الله . والعــالم إذا فعل عن علم لايسأله الجاهل لم فعلت ؟ وكما قال الله عن الانسان : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (الاسراء: ٨٥) . وإذن : « لايسأل عمايفعل وهم يسألون » (الأنبياء : ٢٣) .

وأما أن تقول : إن وجود الشر دليل على (أنْ لاإله) ! فإن هذا محض الجهل ، ومحض ضيعة الفكر ، ومحض عدم المعرفة بقوانين الكون ، فإن وجود الله قائم عليه من البراهين ؛ بحيث يأخذ حكم البداهة عند كل إنسان لم تتعطل ملكاته .

وإذن ففي دائرة التعرف على الحكمة نجيب على التساؤلات الآنفة :

الزنى شر ، فهل خلق آلاته شر ؟ ! لقد خلق الله للرجل أعضاء تناسلية وكذلك للأنثى ، وخلق عند الرجل شهوة وعند المرأة شهوة ، والحكمة واضحة ، فيما خلق الله ، ولكن الانسان هو الذي نقل استعمال هذه الآلات من الوضع الحكيم الذي خلقت له من أجل بقاء الجنس ، إلى حالة الفوضى الجنسية ، فليس الشر إذن في خلق هذه الأعضاء ، وإنما الشر فيما فعله الانسان متجاوزاً الحدود التي خلقت الأشياء من أجلها .

وشرب الخمر شر ؛ وهل خلق العنب شر ؟ ! إن العنب في حد ذاته شيء طيب جميل ، والحكمة في خلقه واضحة ، والانسان هو الذي نقل العنب من وضعه الصالح الطيب إلى الوضع الخبيث الفاسد . واستعمال الحديد في القتل غير المشروع شر ، فهل خلق الحديد شر ؟ ! إن وجود الحديد فيه من الحكم ما لا يعد ولايحصى ، وإنما كان استعمال الانسان له استعمالاً خاطئاً هو الشر

والحسد في حد ذاته الذي هو تمني زوال النعمة عن المحسود شر ؛ فهل خلق ملكة التنافس عند البشر شر ؟ ! إن ملكة التنافس عند الانسان من أكبر العوامل التي تؤدي إلى ازدهار العمران وصلاح الانسان ، ولكن الانسان هو الذي حرف هذه الملكة فيه فكان الشر . فالشر من صنع الانسان وليس في وجود الملكة ، والكبر الذي هو غمط الناس وبطر الحق شر ، فهل خلق طلب

الكمال والعلو المشروع شر؟ لقد خلق الله عند الانسان استعداداً كي يطلب الكمال ويطلب العلو في الكمال ؛ ولكن الانسان هو الذي حرف هذا الاستعداد فجعله كبراً ، فكان شراً .

فالانسان إذن هو الذي - بتنكبه عن تحقيق الحكمة فيما خلق الله - يحيل الخير إلى شر ، والصلاح إلى فساد .

والسؤال الآن : ما الحكمة في جعل هذا الاستعداد الهائل عند الانسان للخير والشر ؟ ! والجواب على ذلك :

أ - كي يستعمل الانسان طاقاته كلها فلا تعطل طاقة ، طاقة العقل وطاقة الإرادة ، وطاقة الروح ، وطاقة الفكر ، وطاقة الجسد ، فتظهر بذلك كمالات الانسان في حالة استعمال كل طاقة في طريقها الصحيح ، وفي إيجاده التوازن بين هذه الطاقات ، وبالتالي يعرف فضل الله على الانسان . أو في حالة تعطيل بعض الطاقات وإطلاق بعضها الآخر على غير طريق الحكمة يظهر قبح الانحراف عن سنن الله ، وآثاره السيئة فيرجع الانسان إلى الطريق الصحيح .

ب - وبهذا يعرف الانسان الله حق المعرفة : إذ لايعرف أن الله غفور إلا إذا أخطأ الانسان واستغفر ، ولايعرف أن الله تواب إلا إذا تاب الانسان بعد الذنب وأيقن أن الله يتوب عليه ، ولاتعرف قدرته المطلقة على خلق كل شيء من خير وشر وهدى وضلال ، إلا إذا كان هدى وضلال وخير وشر ، وبالتالي لايعرف الله حق المعرفة إلا إذا كان الانسان على ما هو عليه ، ولذلك كانت حكمة الله في خلق الإنس والجن هي معرفته : « وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون » (الذاريات : ٥٦) . إن الانسان لايعرف أن الله مجيب إلا إذا اضطر فدعاه واستجاب ، ولايعرف أن الله رزاق إلا إذا شاهد وصول الأرزاق إلى كل مخلوق . ومن هنا ندرك أسرار كثير من الآثار الواردة عن رسول الله ﷺ .

جـ - والذين يطلبون أن يكون عالمنا هذا خيراً محضاً يخطئون ، إذ أن الحكمة من وجود هذا الكون والانسان وحياته الأولى فيه هي الابتلاء، ولا ابتلاء إلا بوجود خير وشـر ، وإنما ينجح الانسان في الامتحان إذا بذل جهداً إرادياً للخلاص من الشر والإقبال على الخير :« ونبلوكم بالشر والخير فتنة » (الأنبياء : ٣٥) « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عمـلا » (الملك : ٢) . « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » (الشمس : ٧ - ١٠) « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى »(النازعات : ٤٠-٤١). فإذا مانجح الانسان في امتحان الحياة الدنيا ؛ كان مرشحاً للحياة في عالم الخير المطلق في الآخرة « لهم دار السلام عند ربهم » (الأنعام : ١٢٧) . ومن سقط كان أهلاً لدخول دار الشر « جهنم يصلونهـا وبئس القرار » (إبراهيم : ٢٩) جزاءاً وفاقاً .

* * *

٤ - وإن الانسان إذا استعمل عقله بعلم ، سيجد أن من أصغر ذرات هذا الوجود ، إلى كل جزء من أجزائه، إليه جميعاً ، مليء بالحكم ، ولن يجـد الانسان شيئاً فيه قد خلا من أجل الحكم ، والأمثلة التي ضربناها في ظاهرة الهداية أو الإرادة أو الإبداع ، كلها تصلح أمثلة على الحكمة المبثوثة في كل خلق الله :« الذي أحسن كل شي خلقه »(السجدة : ٧) « صُنْعَ الله الذي أتقن كل شيء » (النمل : ٨٨) ، وهذه أمثلة أخرى جزئية تصلح شاهدة على ظاهرة الحكمة في إطارها الكبير :

أ - ترى لو كانت عينا الانسان في أعلى رأسه أو في أسفل ذقنه أو في مؤخرته أو . . . ؟ أكان ذلك أحكم ؟! أم كونها في مكانيهما الحاليين ؟ ترى

هل هناك جزء من الانسان كان خليقاً أن يكون أحكم في غير محله ؟ إن إنساناً يحترم عقله لايمكن أن يقول : نعم .

وكابسط مثال يضرب في تبيان مواطن الحكمة في أجزاء الانسان يد الانسان، إنه من الصعب جداً؛ إن لم يكن من المستحيل، أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف ، فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك ، ثم تثبته في الوضع الملائم للقراءة ، وهذه اليد هي التي تصحح وضعه تلقائياً ، وحينما تقلب صفحاته تضع أصابع يدك تحت الورقة وتضغط عليها بالدرجة التي تقلبها بها ، ثم يزول الضغط بقلب الورقة ، واليد تمسك القلم وتكتب به ، وتستعمل الآلة، ويأكل بها الانسان ،ويفتح بها النافذة ، ويحمل بها مايريد، ويلمس بها ، وقد يستعملها في تحسس الجمال لنقل إحساساته إلى القلب ، حتى الأظافر فيها؛ تحمي الأطراف لأنها أكثر تعرضاً للإصابة ، وبدون الأظافر لا تستطيع أن تحك جلدك أو تلتقط الأشياء الدقيقة . وأخيراً فإن الأظافر هي الميزان الصحي للانسان، إن كل ما فعله الانسان ساعدت فيه إلى أكبر حد حركة إبهام يده ، ولو كانت غير متحركة كإبهام القرد مثلاً ؛ فإنه لايستطيع أن يفعل الكثير الكثير مما يفعله الآن .

ب ـ شفة الجمل العليا مشقوقة كي تساعده على أكل نباتات الصحراء الشوكية ، وخفافه تناسب الرمل فلا تغوص فيه ؛ بخلاف ما لوكان له ظلف أو حافر ، وأهدابه الطويلة كالشبكة تحمي عينيه من ذرات الرمل ، وسنامه يكنز غذاءه فيه لأمد طويل في غيبة الطعام .

ج ـ النتح في النبات عبارة عن تبخر الماء من النبات عن طريق الأوراق، الأمر الذي يساعد على صعود العصارات من الأرض خلال الجذور ، وتتم عملية النتح بواسطة ثغور موجودة على الورقة ، وهذه الثغور تختلف من نبات إلى نبات

بحسب بيئته ؛ لذلك يقل عدد ثغور النباتات الصحراوية عن عدد الثغور في نباتات الحقل ، مما يقلل النتح في الأولى عن الثانية .

د - إن الطير أخف من أي حيوان في حجمه، وقد اتضح نتيجة تشريحه أن عظام الطير رقيقة مجوفة؛ لتعمل على خفة جسمه وتجعله بذلك قادراً على الطيران .

هـ - في القارة الجنوبية المتجمدة نوع من الطيور يسمى « البانجو » تضع الأنثى بيضها في أشهر الشتاء المظلمة - حيث تتلبد الثلوج في الأرض والسماء - في جيب جلدي في الطرف الأعلى من رجلها ، ويبقى الصغار في ذلك الجيب إلى أن يقووا ويشتد مراسهم .

و - إن للسمك خطاً طولياً على كل جانب من جانبيه ، وبفحص هذه الخطوط بالمجهر، وجدت أنها أعضاء دقيقة حساسة إلى درجة كبيرة، فإذا اقتربت السمكة من حاجز أو صخرة ، تحس هذه الأعضاء باختلاف ضغط الماء نتيجة اصطدامه بالحاجز مهما كان تماوج الماء قليلاً ، فتتفادى بذلك الاصطدام وتغير طريقها .

ز - يطير الخفاش في الليل حيث لا ضوء على ضعف بصره ، ولا يصطدم الخفاش بالحواجز مهما كثرت . وقد تبين أن الخفاش يرسل اهتزازات ترجع إليه بالتصادم مع أي جسم يقابله، فيحس به دون أن يراه. إنه في هذا شبيه بالرادار.

هذه أمثلة تعطينا صورة مبسطة عن الحكمة المبثوثة في كل شيء ، وأن الإنسان كلما ازداد علماً ازداد إدراكاً لظاهرة الحكمة كما قلنا من قبل ، ولكن القلوب العمي ، والآذان الصم ، والعقول المعطلة ، تبقى عاجزة فلا تعي عن الله آية: «وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون» (يوسف : ١٠٥). « وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » (الملك : ١٠) .

ترى لو نسب إنسان إلى مجنون ، أصم ، أعمى ، أخرس ، صناعة الرادار ألا يُشك في عقله؟ بل يجزم بجنونه !. أو ليس الذي ينسب اهتزازات الخفاش إلى المادة الصماء ، العمياء ، البكماء ، الميتة ، أكثر جنوناً !.

« إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا، أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ؟ اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير »(فصلت : ٤٠) .

* * *

إن في هذا الكون مليارات من شواهد الحكمة في الذرة والخلية ، وفي اجتماع الذرات والخلايا ، وفي كل نوع من أنواع الخلق وفي كل جزء منه ، وفي اجتماع هذا كله ، وكل شاهد من هذه المليارات لو نسبه إنسان إلى العدم لكان مجنوناً ، فكم هؤلاء مجانين أولئك الذين لا يؤمنون بالله الحكيم ! وكم هم سفهاء وقحون إذ يتهمون المؤمنين بخالق الحكمة أنهم مجانين !

« والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . فلا تطع المكذبين » (القلم : ١ – ٨) .

* * *

الظاهرة الثامنة

ظاهرة العناية

١ - كل نعمة وراءها منعم ، وَصْفُ دواء لمريض نعمة وراءها طبيب ، تأمين طعام لجائع نعمة وراءها مطعم ، رعاية الطفل حتى يكبر ويستغني نعمة وراءها أب وأم ، وجود بيت فيه كل وسائل الراحة نعمة وراءها ناس عملوا ، وهكذا نجد أن المعطيات المصطنعة للانسان كلها وراءها مباشرة من أعطى واعتنى.

أترى هذه المعطيات الكثيرة التي ليست من صنع الانسان للانسان، أليس وراءها يد ؟ إن مثل هذا الكلام تعطيل للعقل أي تعطيل !.

ولما كانت هذه الظاهرة ظاهرة العناية والنعمة على الانسان ، من أكثر الظواهر تفصيلا في القرآن ، لما يترتب عليها من إظهار فضل الله وكرمه ورحمته وعطائه ، وبالتالي يستخرج بها شكر العاقل لله العظيم ، أو إقامة الحجة على الإنسان وكفره وظلمه وجحوده ، وبالتالي استحقاقه كل عقاب ؛ فلذلك نبقى في جو شرح القرآن لظاهرة النعمة على الانسان ، والعناية به وكون ذلك دليلًا على الله .

٢ - يقول الله تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم »(النحل : ١٨). ويقول :« وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار » (إبراهيم : ٣٤) .

والملاحظ أن آية من الآيتين ختمت بـ(إن الله لغفور رحيم) بينما الاخرى

ختمت بوصف الانسان (إن الانسان لظلوم كفار) فوضح من سياق الآيتين وختامهما معان :

أ – إن هذه النعم التي لا تعد ليست مصادفة بل هي من خلق الله ، وعفو الله ورحمته هما اللذان يسعان الانسان المؤمن ، إذا لم يقم لله بحق المعرفة أو بواجب الشكر قياماً كاملاً .

ب – إن جهل الانسان الذي ينتج عنه الكفر ، وكبره الذي ينتج عنه الظلم ، هو الذي يجعل الانسان لايرى بداهة نعم الله ، ويجعله لا ينسبها إلى الله بإخلاص وتجرد ، بل ينسبها إلى أي شيء ، مهما كان تافهاً وباطلاً : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » (الزمر : ٤٥) .

٣ – وقد أجمل الله ماهية عنايته بالانسان ونعمه عليه في آيات منها :

« هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً » (البقرة : ٢٩) . « ألم تروا أن الله سخر لكم مافي السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » (لقمان : ٢٠) . « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه » (الجاثية : ١٣) . وفي هذا الإجمال السريع يتبين :

أ – أول مظهر من مظاهر نعمة الله على الانسان ، خلقته على ما هو عليه من معان ظاهرة وباطنة .

ب – وثاني هذه المظاهر أن الأرض بما فيها والسموات بما فيها مسخرة للانسان .

جـ – إن هذا الإنعام كله بجزئيه على الانسان من الله عز وجل « وأسبغ »

« جميعاً منه » . ولا يمكن أن يكون إلا ذاك ؛ لأن مناسبة الكون للانسان وإمكانه تسخيره ، لا يمكن أن يكون إلا بسخر .

٤ – وبعد هذا الإجمال ، نذكر بعض تفاصيل هذين المظهرين من مظاهر نعمة الله على الانسان في القرآن :

أ – « ولقد كرمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً »(الاسراء : ٧٠). « الرحمن. علم القرآن. خلق الانسان . علمه البيان » (الرحمن : ١ – ٤) . « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » (التين : ٤) . ويقول الرسول ﷺ : « إن الله خلق آدم على صورته » أي على صفاته على رأي بعضهم ، فالله له إرادة وللانسان إرادة ، والله له علم وللانسان صفة علم ، والله حي وللانسان صفة حياة ، والله سميع وللانسان صفة سمع ، والله بصير وللانسان صفة بصر ، والله متكلم وللانسان صفة كلام ، والله حليم وللانسان صفة حلم ، والله رحيم وللانسان صفة رحمة و ...... مع ملاحظة أن الله ليس كمثله شيء ؛ وجوداً وصفات وأسماءاً وأفعالاً .

فلم ينعم على مخلوق من المخلوقات كما انعم على الانسان من حيث ما أُعطي من معطيات خلقية ظاهرة وباطنة: « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » (لقمان : ٢٠) وكفى بالعقل للانسان نعمة ، وبسبب ما أُعطي استطاع أن يسخر هذا الكون بما فيه .

ب – ويعدد الله عز وجل نعمه الكونية على الإنسان ، وما أكثر الآيات في ذلك ! ويكفي أن نعرف أن سورة طويلة هي سورة الأنعام كلها تقريباً تتحدث عن هذا الموضوع ، وكذلك سورة النمل ، ولنذكر نماذج مختارة من القرآن الكريم : « هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » (يونس : ٥) .

— « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر » (الأنعام : ٩٧) . إن الطريق الوحيد للانسان كي يتعرف على الطريق الصحيح في ظلمات البر والبحر هو النجم ، وقد كانت المسألة قديماً أوضح منها الآن لكثرة ما كان يستفيد الانسان من الاهتداء بالنجم ، ولكن في الحاضر وإلى الأبد سيبقى اهتداء الانسان بالنجم شيئاً أساسياً . يهتدي بها قاطع الصحراء في سيره ، والجندي في معركته هجوماً أو انسحاباً ، والانسان حيث كان ، إن السفينة في البحر إذ تسلك طريقها معتمدة على البوصلة وعلى خطوط الطول والعرض هي — حتى في هذه — معتمدة على النجوم؛ إذ لولا نجم القطب ما عرف طول ولا عرض، ولولا النجوم الأخرى ما عرف نجم القطب . وبدون نجوم كم يتعذب الانسان وكم يضل ، وكم تشل حركته ، وكم تتقلص دائرة عمله !!.

— « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون » (النحل : ١٥ — ١٦) .

— « الله الذي خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الانسان لظلوم كفار » (إبراهيم : ٣٢ — ٣٤) .

— « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون . وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون . وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون . » (الأنبياء : ٣٠ — ٣٣) .

— « خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعامَ خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافعُ ومنها تأكلون . ولكم فيها جمالٌ حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس إنّ ربكم لرؤوف رحيم . والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينةً ويخلق مالا تعلمون . وعلى الله قصدُ السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذي أنزلَ من السماء ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شجرٌ فيه تسيمون . يُنبت لكم به الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومن كلّ الثمرات إنّ في ذلك لآيةً لقومٍ يتفكرونَ . وسخر لكم الليل والنهارَ والشمسَ والقمرَ ، والنجومُ مسخراتٌ بأمره إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانهُ إنّ في ذلك لآيةً لقوم يذكّرون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حليةً تلبسونها وترى الفلكَ مواخرَ فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمنْ يخلُقُ كمن لايخلُقُ أفلا تذكّرون . وإنْ تعدوا نعمةَ الله لاتحصُوها إنّ الله لغفورٌ رحيمٌ . » (النحل : ٤ — ١٨)

— « أو لم يروا إلى ماخلق الله من شيء يتفيأ ظلالهُ عن اليمين والشمائل سجّداً لله وهم داخرون » (النحل : ٤٨) .

— « والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيةً لقوم يسمعون . وإن لكم في الأنعام لعبرةً نُسقيكم مما في بطونه من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربُّكَ إلى النحل أنِ اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرِشون . ثم كلي من كل الثمرات

فاسلكي سبل ربكِ ذُللاً يخرُجُ من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » (النحل : ٦٥ - ٦٩) .

— « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات ؛ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » (النحل : ٧٢) .

— « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون . ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (النحل : ٧٨ - ٧٩)

— « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعا إلى حين » (النحل : ٨٠) .

— « والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ، وجعل لكم من الجبال أكناناً ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون . فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين . يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون » (النحل ٨١ — ٨٣) .

— « ألم نجعل الأرض مهاداً . والجبال أوتاداً . وخلقناكم أزواجاً . وجعلنا نومكم سباتاً . وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . وبنينا فوقكم سبعاً شداداً . وجعلنا سراجاً وهاجاً . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً . لنخرج به حباً ونباتاً . وجنات ألفافاً » (النبأ : ٦ — ١٦)

— « فلينظر الانسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلباً . وفاكهة وأباً . متاعاً لكم ولأنعامكم » (عبس : ٢٤ — ٣٢)

— « يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم، هل من خالقٍ غيرُ الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا إله إلا هو فأنى تؤفكون » (فاطر : ٣)

— « والله الذي أرسل الرياح ، فتثير سحاباً ، فسقناه إلى بلد ميّت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » (فاطر : ٩)

— « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءاً ، فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدّوابّ والأنعام مختلفٌ ألوانُه ؛ كذلك إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ إن الله عزيز غفور . » (فاطر : ٢٧ – ٢٨) .

— « وهو الذي أنشأ جنات معروشاتٍ وغيرَ معروشات ، والنخل والزرع مختلفاً أُكُلُهُ ، والزيتونَ والرمانَ متشابهاً وغيرَ متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن الأنعام حَمُولةً وفَرْشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين . ثمانيةَ أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين .... ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين .... » (الأنعام : ١٤١ – ١٤٤) .

— « إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ومُخرجُ الميت من الحي ، ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالقُ الإصباح ، وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم » (الأنعام : ٩٥ – ٩٦) .

— « وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقرٌ ومستودعٌ قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون » (الأنعام : ٩٨) .

ونختتم هذه الآيات بما ختمت به سورة الأنعام :

« وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ، ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفورٌ رحيمٌ » (الأنعام : ١٦٥) .

وفي هذه الآية نرى إجمالاً لنعم الله كلها :

١ ــ كون الانسان خليفة على هذه الأرض ، وفي هذا إشارة لنوعي النعم: نعمة الله على الانسان في إعطائه الخصائص الظاهرة والباطنة التي استأهل بها تسخير الوجود ، ونعمة الله على الانسان إذ جعل الأرض بما فيها له .

٢ ــ وكون الناس ليسوا سواء ؛ بل رفع بعضهم فوق بعض درجات من أكبر النعم . وقد يُشكل على بعض الناس كيف يكون جعل الناس بعضهم فوق بعض نعمة ، وهذا من قصور الفهم ؛ وذلك لأن الحياة الدنيا لا تقوم إلا على هذا ، فلو كان الناس كلهم متساوين جمالاً وذكاءاً وقوة وعقلاً وعلماً وإمكانات، وكانوا كلهم في الدرجة العليا من ذلك فإنه وقتذاك ، لا يوجد كناس ينظف أرضاً ولا عامل يقيم عملاً ، ولكن وجودهم متفاوتين جعل كلّاً مسخراً في حدود طاقاته ، إلى جزء من العمل الذي تقوم به الحياة الدنيا ومصالح الخلق . وبهذا التفاوت صلح ناس للإمرة، وآخرون للشورى، وآخرون للجيش،وهكذا.

ثم بينت الآية الحكمة في وجود هذا التفاوت بين المستخلَفين ؛ وهو الابتلاء فيما أوتي كل إنسان من مقام ومواهب وإمكانات ، فمن استعمل هذه في طريقها الصحيح نجح وإلا فقد سقط ، وقد يسقط إنسان أوتي من المكانة أعلاها، وينجح إنسان أوتي من المكانة أدناها ، ومن هنا ندرك أن أكبر نعمة أنعمها الله على الانسان إرسال الرسل له: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»(الأنبياء: ١٠٧). «لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ويزكّيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين » (آل عمران : ١٦٤) إذ الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الذين يدلون كل إنسان على الطريق الصحيح الذي ينبغي أن يستعمل فيه ملكاته كلها، بحيث لا يُعطل شيئاً منها، وبحيث لا يصطدم مع الآخرين الذين يحسنون استعمال الملكات ، وبالتالي تتم نعمة الله على الانسان بالاستفادة من كل ما سخر له،ولولا هذا لتضاربت محاولات

الناس من أجل الاستفادة بما سخر الله لهم واصطدموا ، وأصبح هذا الفضل على الانسان بتسخير كل شيء له سبباً في شقاء الانسان ونزاعه كما هو واقع الآن .

من كل ما تقدم نخرج بما يلي :

هذا الانسان هو أكمل مخلوقات هذا الكون ، ودراسةٌ كاملة لهذا الكون ، تدلنا على أنه :سماواته،وأرضه، وحيواناته، .نباتاته،كله مسخر للانسان لايشذ عن هذا ذرة من ذراته :

فالنباتات قديمها وحديثها يستفيد منها الانسان مباشرة أو بطريق غير مباشر : ثمرها لغذائه ، وساقها لسياراته وشقته وناره، وزهرها للنحل الذي يأكل منه الانسان العسل ، وقد تكون غذاء للشاة التي يأكل لحمها ، ويشرب لبنها ويستعمل صوفها لثيابه ، ويستخرج منها الدواء ويصنع منها الأدوات، ولا ننسى أن البترول منها كان .

وهذه الأحياء ماعلمنا منها وما لم نعلم؛أليست كلها للانسان يستفيد منها بطريق مباشر وغير مباشر :دراً،وطعاماً،ومتعة نظر، وقد نرى أصنافاًمن الأحياء لا نعرف الآن ماذا يستفيد منها الانسان وكيف يستفيد ، وقد يُعرف في المستقبل ، ولعل في هذه القصة عبرة :

هناك نوع من الصبير يستعمل كسياج للمزارع ، نقل إلى أستراليا وزرع هناك ، وكانت فاجعة إذ امتد بشكل هائل لدرجة أنه كاد يغطي كثيراً من الأراضي الصالحة للزراعة ، وحار العلماء في الأمر ، ثم عثروا على نوع من الجراثيم المرضية لا تعيش إلا على هذا النوع من النبات ، فنقلوا هذه الجراثيم بواسطة النبات نفسه، وبدأت الجراثيم تعمل عملها حتى تقلص النبات إلى الوضع المناسب، والملاحظ أن الجرثوم لم يقض على النبات؛ بل بقي النبات ولكن بالقدر الذي ينفع ولا يضر .

ولعل في قصة اكتشاف البنسلين وفي وجوده عبرة أخرى، على أن كل شيء في هذا الكون يستفيد الانسان منه بشكل أو بآخر الآن أو غداً ، وعلى كل فإن الانسان كما يتمتع باللقمة التي يأكلها والثوب الذي يلبسه يتمتع بالمنظر الجميل ، وكما يتمتع بالمنظر الجميل ، يتمتع بلذة المعرفة ، ولئن لم يكن في بعض المخلوقات إلا أنها تدل على حكمة الله ورحمته وسعة عنايته بمخلوقاته ، إيجاداً وإمداداً ، إحياء وإماتة ورزقاً لكفى .

ثم أليست عناصر هذا الكون : حديده ، ونحاسه ، وأوكسيجينه ، وآزوته ، وهيدروجينه ، وذهبه ، كلها مسخرة للانسان ؟! ثم الأرض بساطه ومأواه ومحل معاشه وقراره ؟! وفي القمر للانسان جذبه ونوره وجماله ومعرفتنا الوقت به ؟! وفي الشمس للانسان جذبها وحرارتها ونورها وطاقتها التي تبثها ؟! وفي النجوم الهادية الجميلة ؟! والمياه ودورتها ؟! والرياح ودورتها ؟! ثم كون هذا الانسان على ما هو عليه من علم وإرادة وقدرة وحكمة وعقل بحيث عرف كل الكثير من الأشياء ، وكيف يستفيد منها ، أليس في هذا دليل كامل على أن هذا الكون خلق مسخراً للإنسان، وأن الإنسان خلق مسخّراً لهذا الكون ؟ !

أوليس في هذا الدليل الكامل على أن هناك ذاتاً رتبت هذا للانسان وأوجدت الانسان له . ذلك الله رب العالمين ؟!

«وإذ تأذّنَ ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد. وقال موسى: إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد »(إبراهيم: ٧ - ٨) . « وقليل من عبادي الشكور » (سبأ : ١٣) .

* * *

الظاهرة التاسعة

ظاهرة الوحدة

إن الدارس لهذا الكون، يرى أن فيه وحدة، تدل دلالة كاملة على أن ذاتاً واحدة بعلم واحد وإرادة واحدة وقدرة واحدة قد أوجدته، ومظاهر هذه الوحدة كثيرة منها:

١ - التكامل في أجزاء هذا الوجود الذي يدلنا بدقة على أن خالقاً واحداً قد رتب أجزاءه هذا الترتيب الدقيق المتكامل، يقول الاستاذ البنا - رحمه الله -:

الملاحظة الأولى: (هذا الهواء الذي نستنشقه مركب من عدة عناصر منها جزءان هامان: جزء صالح لتنفس الانسان ويسمى باصطلاح الكيماليين الأوكسيجين، وجزء ضار به ويسمى الكربون، فمن دقائق الارتباط بين وحدات هذا الوجود المعجز، أن هذا الجزء الضار بالانسان يتنفسه النبات وهو نافع له، ففي الوقت الذي يكون الانسان فيه يستنشق الأوكسيجين ويطرد الكربون، يكون النبات يعمل عكس هذه العملية فيستنشق الكربون ويطرد الأوكسيجين) أهـ.

(ويتمم عملية إيجاد التوازن بين الصادر والوارد من غاز الفحم البحرُ، فإنه يمتص كل زيادة موجودة في الجو إذا بلغت هذه الزيادة فوق الحد المناسب).

(فانظر إلى الرابطة التعاونية التكاملية بين الانسان والنبات والبحر في شيء هو أهم عناصر الحياة وهو التنفس).

الملاحظة الثانية : (أنت تأكل الطعام وهو يتركب من عدة عناصر نباتية أو حيوانية ، يقسمها العلماء إلى مواد زلالية ونشوية ودهنية مثلاً ، فترى أن الريق يهضم بعض المواد النشوية ويذيب المواد السكرية ونحوها مما يقبل الذوبان، والمعدة يهضم عصيرها المواد الزلالية كاللحم وغيره ، والصفراء المنفرزة من الكبد تهضم الدهنيات وتجزئها إلى أجزاء دقيقة يمكن امتصاصها ، ثم يأتي البنكرياس بعد ذلك ، فيفرز أربع عصارات تتولى كل واحدة منها تتميم الهضم في عنصر من العناصر الثلاثة النشوية أو الزلالية أو الدهنية ، والرابعة تحول اللبن إلى جبن ، فتأمل هذا الارتباط العجيب بين عناصر الجسم البشري وعناصر النبات والحيوان والأغذية التي يتغذى بها الانسان) .

الملاحظة الثالثة : (ترى الزهرة في النبات، فترى لها أوراقاً جميلة جذابة ، ملونة بألوان مبهجة ، فإذا سألت علماء النبات عن الحكمة في ذلك أجابوك بأن هذا إغواء للنحل وأشباهه من المخلوقات التي تمتص رحيق الأزهار ، لتسقط على الزهرة ، حتى إذا وقفت على عيدانها علقت حبوب اللقاح بأرجلها،وانتقلت بذلك من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأنثى فيتم التلقيح ، فانظر كيف جعلت هذه الأوراق الجميلة في الزهرة حلقة اتصال بين النبات والحيوان؛ حتى يستخدم النباتُ الحيوانَ في عملية التلقيح الضرورية للإثمار والإنتاج) .

هذا التكامل نجده في كل شيء بين الليل والنهار ، السماء والأرض ، الشمس والقمر ، الأعضاء المذكرة والأعضاء المؤنثة ، الانسان والحيوان والنبات ...

إن في هذا الكون وحدة مظهرها تكامل أجزائه تدل على أن لها خالقاً وأنه واحد. أمَّا لِمَ دلنا هذا على الوحدانية ؟ يجيب على هذا الأستاذ البنا فيقول: (إن التعدد مدعاة الفساد والخلاف والعلو ولا سيما وشأن الألوهية الكبرياء والعظمة،

وأيضاً فلو استقل أحـــد المتعددين بالتصـــرف تعطلت صفات الآخرين ، ولو اشتركوا تعطلت بعض صفات كل منهم ، وتعطيل صفات الألوهية يتنافى مع جلالها وعظمتها فلا بد أن يكون الإله واحداً لا رب غيره) .

وقد ذكر القرآن دليل التكامل على الخالق ووحدانيته في أكثر من سورة :

« قل الحمد لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى آلله خير أمّا يشركون ! أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله بل هم قوم يعدلون !. أمّن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالهـــا أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون !. أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله قليلاً ما تذكّرون !. أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بُشْراً بين يدي رحمته ، أإله مع الله ، تعالى الله عما يشركون !. أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ، أإله مع الله قل هـاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (النمل : ٥٩ — ٦٤) .

« أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشِرون . لو كان فيهما آلهـة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم هذا ذِكْرُ مَنْ معي وذكر من قبلي ؛ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنـــا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه : أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (الأنبياء : ٢١ — ٢٥) . « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله

قل : فأنى تُسحَرون . بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون .ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون »(المؤمنون: ٨٤ – ٩٢).

« قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغَوا إلى ذي العرش سبيلًا . سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً » (الاسراء : ٤٢ – ٤٣) .

٢ – ومن مظاهر هذه الوحدة في الكون ، ذلك التناسق والترتيب الذي ذكره الله في القرآن بقوله :

« ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلبْ إليك البصر خاسئاً وهو حسير »(الملك : ٣–٤).

وهذه أمثلة من هذا الكون تدلك على هذه الوحدة الشاملة المتناسقة فيه :

أ – إن الألكترون يدور على عكس عقارب الساعة ، والأرض تدور على عكس عقارب الساعة، والشمس تدور على عكس عقارب الساعة ، والكواكب السيارة تدور على عكس عقارب الساعة ، والقمر وكل الأقمار تدور على عكس عقارب الساعة، والنجوم كلها تدور على عكس عقارب الساعة ، ومجموعتناالكبرى التي تضم بين أجزائها مجموعتنا الشمسية تدور على عكس عقارب الساعة ، والألكترون يدور على مدار بيضوي إهليلجي والأرض تدور حول الشمس على مدار بيضوي إهليلجي،وكذلك الزهرة ونبتون والمشتري والكواكب السيارة. ومحور الأرض مائل، ومحور القمر مائل ، ومحور المريخ مائل .. ومحور الشمس مائل،والعجيب أن النسبة بين النواة وألكتروناتها كالنسبة بين الشمس وكواكبها السيارة .

ب – إن ذرات الوجود كلها تقوم على الزوجية ، كهرباء سالبة وكهرباء موجبة ، فإذا ارتقينا إلى النبات وجدنا عنصر الزوجية ، فإلى الحيوان كذلك ،

فإلى الإنسان كذلك وحتى في الأحياء المخنثة توجد أعضاء ذكرية وأخرى أنثوية : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » (ياسين : ٣٦) . وفي الأرض نفس العناصر التي تؤلف الشمس ، ونفس العناصر التي تؤلف كل الكواكب ، والكون بكل عناصره مؤلف من بروتونات وألكترونات كعناصر أساسية ، ونيوترونات كشحنات كهربائية معتدلة تكون في نواة بعض العناصر .

جـ - في هذا الكون قوة ومنابع قدرة ، وتحكمه قوانين ، وإنك لتجد أدق معاني التناسق والوحدة بين هذه القوى والقوانين ، وكمثال :

من منابع القوة والقدرة في هذا الكون : الضوء ، والحرارة ، والأشعة السينية ، والأشعة اللاسلكية ، والأشعة البنفسجية ، وتحت الحمراء ، هذه القوى كلها ترجع إلى شيء واحد هو تلك القوة الكهربائية المغناطيسية ولها جميعاً سرعة واحدة ، وإنما اختلافها اختلاف موجة .

ومن قوانين هذا الكون، قانون الجاذبية الذي يحكم الوجود كله من أصغر ذراته إلى أكبر أجرامه، والذي نصه :(كل شيء له كتلة يجذب كل شيء آخر له كتلة. وقوة التجاذب التي بينهما تزداد ازدياداً طردياً بزيادة أي الكتلتين . فالقوة تتناسب تناسباً عكسياً مع مربع البعد بينهما .

والآن عرفنا أن هناك قوتين أو نوعين من القوة : القوة المغناطيسية الكهربائية ، وقوى الجاذبية وكلها ترجع إلى أصل واحد .

يقول أينيشتاين: (إن روح العالم النظري لا تحتمل أن يكون في الوجود شكلان للقوى لا يلتقيان : شكل للجاذبية القياسية ، وشكل للمغناطيسية الكهربائية) .

د - وهاتان قصتان تدلان على التناسق أولاً ، وفي التشابه بينهما دليل على الوحدة الكونية :

الأولى : إن اختلاف العناصر الأصلية في هـذا الكون ، أثر عن اختلاف عدد ألكتروناتها وبروتوناتها ، والوزن الذري أثر من آثار هذا العدد ، وخواص كل عنصر أثر من آثار هذا العدد ، وقد استطاع العالم الروسي « مندليف » أن يصنف العناصر بحسب وزنها الذري ووضع لها جدولاً على هـذا الأساس ، وكان ترتيب العناصر في هذا الجدول متدرجاً حسب قانون دوري تخضع له العناصر ، بحيث تشكل سلماً متدرجاً صاعداً، ولكن مندليف فوجىء بفراغ كالفراغ الذي سنذكره بين المريخ والمشتري .

إذ أنه وجد أن درجات السّلم الدوري للعناصر تطّرد بتتابع لا فراغ فيه ، إلا في ثلاثة عناصر ، فإما أن يكون هذا القانون الدوري غير مطرد وغير صحيح ، وإما أن يكون صحيحاً ومطرداً ،فلا بد حينئذ من وجود هذه العناصر المفقودة في نفس تلك الدرجات الفارغة ، وكان مندليف واثقاً من صحة قانونه الدوري ، فأخذ يؤكد أن هـذه العناصر الثلاثة المفقودة لابـد من وجودها على الأرض ، بل إنه استطاع على أساس وزنها الذري الذي يأتي في الدرجات الفارغة أن يحدد كل الخواص الكيماوية التي لها كأنه يراها ، وقد رأى « مندليف » قبل موته صحة نظريته العلمية ، واكتشف العلماء العناصر المفقودة بكل خصائصها كما حددها مندليف .

الثانية : أقرب الكواكب إلى الشمس عطارد وبعـده ٣٦ مليون ميل ، فالزهرة ومتوسط بعدها ٦٧ مليوناً ، فالأرض ٩٣ مليوناً ، فالمريخ ١٤٢ مليوناً ، فالمشتري٤٨٤ مليوناً، فزحل ٨٨٧ مليوناً ، فأورانوس ١٧٨٢ مليوناً ، فنبتون٢٧٩٢ مليوناً من الأميال ، ويهمنا أن نعرف النسبة في هـذه الأعداد . إن أبعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقدرة ومطردة تسير وفق (٩) منازل : أولها الصفر ، ثم تليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد ٣ ، ثم تتدرج مضاعفة

هكذا (٣ – ٦ – ١٢ – ٢٤ – ٤٨ – ٩٦ – ١٩٢ – ٣٨٤) . فإذا أضيف إلى كل واحد منها العدد (٤) ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل، ظهر مقدار بعدالسيارة التي في منزلة العددعن الشمس ؛ أي أنه بإضافة (٤) إلى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا : (٤ – ٧ – ١٠ – ١٦ – ٢٨ – ٥٢ – ١٠٠ – ١٩٦ – ٣٨٨) . فإذا أخذنا أعداد المنازل هذه ، وضربنا كل عدد منها بتسعة ملايين ، يظهر لنا بعد السيارة التي هي في منزلة ذلك العددعن الشمس؛ فعطارد مثلا يبلغ متوسط بعده عن الشمس ٣٦ مليون ميل ، وبما أن منزلته في البعدي الأولى فيكون رقمه ٤، فإذا ضربنا ٤×٩ يكون حاصل الضرب ٣٦ مليون ميل ، وهكذا تسير النسبة في بعد كل سيار عن الشمس مع فروق مختلفة قليلة .

ولكنهم وجدوا أن منزلة العدد |٢٨| ليس فيها كواكب ، بل يأتي بعد العدد ١٦ الذي صاحبه المريخ ، العدد ٥٢ الذي صاحبه المشتري ، فما هو السر في هذا الفراغ ؟ إما أن تكون النسبة التي اكتشفوها غير مطردة ، وإما أن يكون هناك كوكب غير منظور في مرتبة العدد ٢٨ على بعد ٢٥٢ مليون ميل عن الشمس ، أي بين المريخ والمشتري وأخيراً وجدوا هذا الشيء الذي لابد من وجوده ، ولكنهم لم يجدوه كوكباً كبيراً ؛ بل وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها في الفراغ المذكور الذي بين المريخ والمشتري ، أي في نفس المنزلة التي حسبوها من قبل فارغة ، فكأنه كوكب تحطم .

هاتان قصتان متشابهتان في قضيتين مختلفتين ، كل واحدة منها تتمم الأخرى لتكملا عندك الشعور ؛ بأن يداً واحدة قد خلقت قوانين هذا الوجود وعناصره وجزئياته وكلياته .

هـ – وللنجوم قصة :

فقد عرف الانسان شيئاً من مواقع النجوم ، وعرف أن لها أقداراً ثابتة بحسب نورها وعددها . عدوا منها في الماضي البعيد ستة أقدار ووقفوا ، ثم مازالوا يكتشفون الجديد ، حتى وصلوا إلى القدر العشرين ، ثم إلى القدر الحادي والعشرين ، والعجيب في هذه الأقدار أنها تسير مترقية أو متدنية – بحسب عدد النجوم تارة، وبحسب قوة نورها أخرى – في نسب مدهشة تطرد في عدد النجوم ، فتزداد تباعاً من قدر إلى قدر ، فيكون عدد نجوم القدر الأول ١٤ نجماً ، ثم لا يزال يزداد حتى يبلغ في القدر العشرين ٧٦ مليون نجم ، ويبلغ في القدر الحادي والعشرين ملياري نجم ، أما في قوة النور فقد شوهد أن تلك الأقدار تزدادباطراد من القدر الأول إلى القدر العاشر ، فكلما زاد عدد النجوم في القدر زادت قوة النور ، وأما بعد العاشر فتنعكس الآية وتأخذ قوة النور في التضاؤل .

و – ومن مظاهر هذه الوحدة في هذا الكون اتصال أفق النبات بأفق الحيوان ، واتصال أفق الحيوان بأفق الانسان ، فترى في عالم النبات تدرجاً من أدنى إلى أعلى مع التشابه ، وتجد أعلى آفاق النبات متصلاً بأدنى آفاق الحيوان ، وأعلى آفاق الحيوان متصلاً – نوع اتصال – بأفق الانسان، حتى حسب الحاسبون أن هناك بذرة أولى كان منها تطور وارتقاء حتى أصبحت الأحياء على ماهي عليه . وقد ناقشنا هذه النظرية وبينا بطلانها في ظاهرة الحياة ، ولكن القول بها دليل على ما بيناه من أن في أحياء هذا الكون وترقياتها وحدة تدل على وحدة الصانع الذي خلقها أجناساً وأنواعاً ، وجعل بعضها أرقى من بعض : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » (الأنعام : ٣٨) .

ز – ومن مظاهر الوحدة في هذا الكون أن المادة كلها من نور ، إذ أن عناصر المادة كلها تؤول إلى ذرات وكهارب ، وأن هذه الذرات والكهارب تنشق فتؤول إلى شعاع .

ح ـ ومن مظاهر الوحدة أنك تجد أن أجنة الحيوان والانسان في الشهور الأولى من الحمل متشابهة تشابهاً تاماً، فإذا بهذا التشابه يخرج منه ذلك الخلق المختلف.

* * *

وهـــذه المظاهر كلها تدل على التنسيق والترتيب، فإذا أضفنا إليها ظاهرة التكامل ، وجدنا ـ لا شك ـ أن ذاتاً واحدة ، بعلم واحد ، بإرادة واحدة ، بقدرة واحدة ، هي صانعة هذا كله .

أما لِمَ نسبنا هذا الوجود والوحدة فيه إلى خالق ؟ ولِمَ حكمنا أن هذا الخالق واحد ؟ فهذا ما سيأتيك الجواب عنه في الفصول الثلاثة التالية بالتفصيل :

١ ـ السببية ٢ ـ الطبيعة ٣ ـ التوحيد

وهذه الفصول الثلاثة منقولة من كتاب « الوجود الحق » للدكتور حسن هويدي .



السببية

منذ امتياز هذا الانسان بالادراك وإشراق أشعة عقله على الوجود، تساءل ـ ولايزال ـ عن مبدئه ومنتهاه، فهو يتساءل من أين أتى وإلى أين يصير؟ وهو إذ ينصرف فكره إلى أن وروده المباشر إلى هذا العالم؛ إنما كان من رحم أمه، أو من نطفة أبيه ، لايقتنع بهذه النظرة السطحية القريبة ، دون النظر إلى المبدأ الأول ، والبحث عن السبب الأساسي الذي ترجع إليه جميع الأسباب .

ولهذا الدافع العميق الممتزج بالنفس البشرية ، والذي ولد معها ، ومازال يلازمها ، كان الجواب على هذا السؤال شغل المحققين الشاغل ؛ فنشأت أحكام مختلفة ، ونظريات متباينة ، وكان منهم مخطىء ومصيب . غير أننا إذا نظرنا إلى مـــا بين أيدينا من السماء والأرض؛ نرى أن المطر ينهمر من سحاب ، وأن الثمر يحصل من شجر ، وأن الشجر ينبت من الماء والتراب ، وأن الماء ينشأ من عنصري (الأوكسجين والهيدروجين) ولم يشاهد الانسان منذ فتح عينيه على الوجود أن حادثاً حدث من غير سبب ، أو أن شيئاً وجد من غير موجد، حتى أضحى هذا المعنى ـ بحكم الواقع القاهر ـ لا يتصور العقل خلافه ولا يطمئن إلى غيره ، ولا يأبى الإقرار به إلا عقل مريض شأن المعتوهين ، أو عقل قاصر شأن الطفل الذي يكسر الإناء ثم يقول : إنه انكسر بنفسه ؛ ولذلك وجدنا ذلك العربي قد أدرك هذه السببية بفطرته النقية ، فنادى نداءه المشهور : (البعرة تـــدل على البعير ،

والأثر يدل على المسير ، ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، أفلا تدل على الصانع الخبير) .

لهذا الواقع الصريح ، والإدراك القاهر ، وجريان الحوادث أبداً على هذا القانون ، أضحى هذا المبدأ مسلّماً به في كتب الفلسفة ، وسمي بـ(مبدأ السببية) وهو أول مبادىء العقل المديرة للمعرفة ، لأنه أساس الأحكام العقلية والمحاكمات المنطقية ، ولو التفت إلى كلماتك التي تخاطب بها الناس صباح مساء ، والأحكام التي تنظم بها شؤون حياتك، لوجدتها لاتخلو في أي مرحلة من المراحل من الاستناد إلى مبدأ السببية .

إذاً ، فقولنا : (لابدلكل حادث من محدث) أمر يقيني مسلّم به ولا يقبل العقل غيره ، وبالتالي محال على حادث أن يحدث بذاته ، وعلى شيء أن يوجد بغير موجد، وإليه الإشارة في القرآن الكريم «أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون» (الطور : ٣٥) . نقول بناء على هذه القاعدة : إن عالمنا هذا من أرض وجبال ، وشجر ودواب ، وكواكب وشموس ، لا بد له من محدث ، وإن هذه الحوادث الفرعية الكثيرة ، مندفعة عن أسباب، وهذه الأسباب مندفعة عن أسباب أخرى أقل من الأولى ، ولا بد أن نصل بالنتيجة ، إلى سبب لجميع هذه المسببات ، ومحدث لجميع هذه الحادثات ، لأننا كلما رجعنا إلى الأصل الذي اندفعت عنه المسببات، قلّت العوامل الدافعة، حتى نصل أخيراً إلى سبب واحد . كنظرك إلى أغصان الشجرة المتعددة المتشابكة ، فكلما ذهبت تبحث عن أسبابها ، ذهبت إلى قليل من كثير ، حتى تنتهي إلى ساق واحدة ، وإنك تجد لهذه أمثلة كثيرة ، هي من الظهور بمكان لا تحتاج معه إلى الوقوف الطويل وضرب الأمثال .

إذاً ، فإنكار محدث للحوادث ، وموجد للوجود ، تناقض مع العقل ، وإقامة على الخطأ، ولعله لهذا الإلزام المنطقي الذي لا مناص منه، سماه «ابن سينا»،

بالواجب الوجود ، حفاظاً على حرمة العقل من أن يوصم بالتخليط والتناقض ، أو البلاهة والتبلد ، إذ يستحيل أن ينبثق الوجود من العدم .

هذا وإن قدم المبدأ ، أو قول كثيرين به ، أوظهوره بمظهر البديهية لا يقضي عليه ، ولايخرجه من الحق إلى الباطل ، مادام العقل يمليه ، والواقع يؤيده ، إلا إذا كان الداعي إلى الإنكار ، استكباراً على كل قديم ، أو عقوقاً للمنطق السليم ، أو جرياً مع كل هوى سقيم ، شأن الحمقى والمرضى والمغرورين .

وقد يقول قائل : إن هذا المحدث لجميع الحوادث هو الطبيعة ، وسيأتي الكلام على الطبيعة ، أو يقول : إذا أقررنا بوجود الخالق ، فمن الذي أوجد الخالق ؟ وسيأتي تفصيل ذلك[1] .

والذي نريد أن نخلص إليه الآن واضحاً مجزوماً به : لابد لكل حادث من محدث ، إذن فلا بد لهذا العالم من خالق .

هنا قد يثير بعض النقادقضية قدم العالم وحدوثه ، فيقول : إن هذه القاعده تستقيم إذا سلمنا بحدوث العالم ولم نقل بقدمه .

ونقول : إن البرهان ملزم بالقول بحدوث العالم ونفي قدمه ، فقد قال الإمام الغزالي ، بناء على ملاحظة الحركة والسكون : إن دورة من الفلك:إما أن تكون شفعاً أو وتراً ، فإن كانت شفعاً فقد أتمت عدداً فردياً ، وإن كانت وتراً فقد أتمت عدداً زوجياً ، إذن فالعدد السابق على كلا الحالين محدود ، ولما كان محدوداً فهو حادث قطعاً ، ولواستمر الناقد فقال : إن أصل العالم (هيولاه) قديم ، والحركة طارئة ، قلنا له : من أين طرأت الحركة به ، فهو إذن إقرار منه صريح بوجود مرجّح آخر أثر على العالم بإيجاد الحركة ، بل هو استعجال

---

(١) مر معنا تفصيل هذا في الظاهرةالأولى ؛ ولذلك لم ننقل كلام الأستاذ فيه .

فاصل للإقرار بوجود خالق للعالم . فالناقد بين أمرين : إما أن يرجع إلى قولنا بالحدوث فيعترف بالخالق ، أو أن يقر بوجود المرجح وهو اعتراف بالخالق ، إذن ، فنقد الناقد واهٍ لم يصل إلى القرارة ولم يثبت النقد ، والقول بقدم العالم باطل لا يسنده برهان[1] ، وهكذا تنهار (المادية الجدلية) التي تقول بقدم العالم ، هرباً من الإقرار بوجود خالق للعالم ، وتفلتاً من البرهان الملزم ، والدليل القطعي .

وقد تستغرب قولي بانهيارها بهذه السرعة ، ولكني أقول : إن عقداً من النظام لو بلغ ألف حبة ، لانفرط كله بحل العقدة الأولى . وإن لم ترد ذلك ، فاحذف من المادية الجدلية كل ما بني على أساس (قدم العالم) من الأحكام ، فأول حكم تهدمه من أحكامها الأساسية إلحادها في الخالق ، وعند القول بخالق الوجود ؛ تنشأ أحكام أخرى تهدم أحكامها الفرعية كما سترى ، دون أن يكون البحث موجهاً إلى الفروع خاصة ، ولكن بروز الحقيقة في الأصل يهدم بصورة عفوية كل باطل فرعي .

* * *

(١) بل القول بالحدوث هو الذي تسنده عامة البراهين كما رأينا في الظاهرة الأولى .

الطبيعة

بعد ماتبين لك ، بما لايقبل الشك ، وجود الخالق الأول ، وأنه الكامل المطلق ، وأن السؤال عن خالق الكمال المطلق لايصح ، وتبددت أمامك تلك الشبهات ، بقيت شبهة من شبهـــات العصر ، وضلالة أخرى من ضلالاته ، وهي – كما سيظهر لك – مصطنعة كما تصطنع الأصنام ، مخيمة على الأحلام كما تخيم الأوهام ، ولكنها بكل أسف ، مع اصطناعها هذا ، وعدم استنادها إلى أساس ، نجدها مسيطرة على عقول كثير ممن يدّعون الثقافة والمعرفة ، وقد انطلت عليهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتمحيص . تلك الشبهة هي الطبيعة ، إله العصر المزعوم .

حينما تبادر أحد الطبيعيين بالقول :

من خلق السموات والأرض ؟ يقول لك : الطبيعة .

من خلق النبات والحيوان ؟ يقول لك الطبيعة .

من خلق الانسان ؟ يقول لك : الطبيعة .

من يدبر جميع هذه الأمور الفلكية ، والحيوية ، والغريزية ، وكل بحساب دقيق ونظام لايحيد ، فسيقول لك : الطبيعة .

وهو يتذرع لك بهذا السبب لأنه لايستطيع أن يقول لك : إنها تحدث

بذاتها ، أو من تلقاء نفسها ، وينكر قانون السببية ، فهو أصاب حين أقربالسببية وأخطأ حين جهل المسبب ، وليس شأننا حين البحث في هذا الأمر أن نكتفي بالتسفيه والتشنيع ، ولكننا نناقش الأمر من جميع الوجوه ، فما كان من حق أقررناه،وما كان من باطل فندناه، والعاقل الذي يصيخ إلى المنطق، والجاهل الذي يتبع هواه ، ويقيم على الباطل ولو تبين له الحق .

فما هي الطبيعة ؟ وما هي مفاهيمها ؟ وما هي حقيقة تأثيرها ؟

الطبيعة في اللغة : السجية والخلق . غير أن للطبيعة اليوم في عقول الناس — حسب تفاوتهم — مفهومين :

المفهوم الأول : إنها عبارة عن الأشياء بذاتها ، فالجماد والنبات والحيوان ، كل هذه الكائنات هي الطبيعة . وهو مفهوم غير دقيق ، وحكم غير سديد كما سيتبين لك .

المفهوم الثاني : إنها عبارةعن صفات الأشياء وخصائصها ؛ فهذه الصفات : من حرارة وبرودة ، ورطوبة ويبوسة ، وملاسة وخشونة ، وهذه القابليات : من حركة وسكون ، ونمو واغتذاء ،وتزاوج وتوالد، كل هذه الصفات والقابليات هي : الطبيعة .

وسواء أكان القول الأول أو القول الثاني هو المعبر عن الطبيعة بحق ، فما نصيب هذا القول من الحق ؟

أما القول الأول : فلايخرج بالطبيعة — بالنسبة لخلق الوجود — عن تفسير الماء بالماء ، فالأرض خلقت الأرض ، والسماء خلقت السماء ، والأصناف صنفت نفسها ، والأشياء أوجدت ذاتها ، فهي الحادث والمحدث ، وهي المخلوق والخالق في الوقت ذاته ، وبطلان هذا القول بيّن ، فهو إما ادعاء بأن الشيء وجد بذاته عن غير سبب — وقد تبيّن لك فساده بقانون السببية — وإما إدماج الخالق

والمخلوق في كائن واحد ، فالسبب عين المسبب وهو مستحيل ؛ بل هو من التهافت والتناقض بحيث لايحتاج إلى الوقوف والشرح .

وأما القول الثاني : وهو الاعتماد على قابليات الأشياء وخصائصها في التكوين ، فنقول فيه : الحقيقة إن الذين يعزون الخلق إلى تلك القابليات والخصائص ، لا يعدون عن كونهم وصّافين لتلك الظواهر ، لا يعرفون كنهها ، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن حقيقتها ، ولو فعلوا ذلك لوجدوا أن القابلية التي اعتمدوا عليها في خلق الشيء سراب خادع يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ولإيضاح ذلك بالطريق العلمي نضرب المثال التالي :

نضع حبة في التراب ، ونسقيها بالماء فتنتفخ ، وتنفلق ، فيظهر منها الرشيم ، ويندفع منه الجذر إلى الأسفل ، والساق إلى الأعلى ، وتنشأ الأوراق فالأزهار فالثمار ، وتكون الحبة قد أنتجت تفاحة مثلاً .

فالقابلية التي كانت في الحبة هي الانتفاخ، والانفلاق ، وظهور الرشيم... ولولا هذه القابليات المتوالية لما اطردت تلك الظواهر الحيوية ، ولما نشأت عنها الثمرة . فلنأت إلى هذه القابلية بالذات نبحث عن حقيقتها : لو لم تنتفخ الحبة وتنفلق لما نشأ شيء . فمن الذي نفخها وفلقها ؟ لو كان للحبة عقل وتدبير لقلنا : إن عقلها هو الذي هيأ لها ذلك، ولو أن الماء هو الذي نفخها وفلقها ، لأمكن للماء أن ينفخ في الحديد ويفلقه ، إذن فلا بد من مؤثر وقبول لتأثير ذلك المؤثر ، وإذا كانت الحبة بذاتها – جدلاً – انتفخت وانفلقت ، فلماذا لم تجمد وتضمر بدلاً من أن تنتفخ وتنمو ؟ ولكي يحصل التكاثر والبقاء ، يحتاج الأمر إلى عقل وإدراك ، ومنهاج مرسوم من قبل تلك البذرة ، والبذرة لا تملك شيئاً من ذلك ! فكيف حصلت إذن ثمرة بعينها ، بل كيف حصلت ثمار كثيرة متنوعة ، وكيف كمنت الغاية المعينة والصفات المقصودة في صميم كل بذرة منها ؟

والحقيقة أن من أنعم النظر في تعبير الطبيعيين المستندين إلى القابلية : طبع النبات على ذلك ، انتفخت الحبة ، وانفلقت ، وتوالدت الخلايا ، تميل الخلية الحية إلى الانقسام؛ يجد أنها جميعها أفعال مبنية للمجهول لجهل الفاعل الحقيقي ، فكأن الطبيعي أغمض العين عن السبب الحقيقي ، وبنى الفعل للمجهول تخلصاً . فمن الذي نفخ الحبة ؟ ومن الذي فلقها ؟ ومن الذي أدى إلى التوالد ؟ ومن الذي جبل الخلية على الانقسام ؟ كل هـــذا التحقيق لاتصل إليه نظرة الطبيعيين القصيرة بل المقتصرة على وصف الظواهر ، دون الذهـــاب إلى أسبابها ، بل المخطئة في جعل الصفة المنفعلة سبباً فاعلاً ، والقابلية مؤثراً ، والظـاهرة المجهولة عاملاً مكوناً ، فالانتفاخ صفة ، نشأت عن المؤثر الخـارج عن الشيء ، وعن قبول أثره في ذلـك الشيء ، والانفلاق صفة ، والامتداد صفة ...

وما زاد الطبيعي على أن جعل من مجموع هذه الصفات مفهوماً مركباً ، سماه (قابلية التوالد والنمو) . فجعل من القابليــة التي هي عَرَض من أعراض الشيء سبباً في الخلق ، ومن الصفة الانفعالية التي لا تعي ولا تدرك ، سبباً فاعلاً واعياً في تكوين الأشياء ! إذن فمن الذي ركز الطبيعة في العناصر ؟ ومن الذي نوع تلك الطبائع ؟ إن بذرة الأجـاص ، وبذرة المشمس ، حين توضعان في التراب تنتج كل واحدة منها ثمراً يختلف عن الآخر ، بلونه ، وطعمه، ورائحته، مع أنه يسقى بماء واحد ، ومع اتفاقنا على أنه ليس للبـذرة عقل ، ولا لجـــذر الشجرة إدراك ، فكيف كان الجذر يمتص الماء ، ويصطفي ذرات بعينها، وينضح النسغ ويسوقه إلى الثمر ، ويكون العصارة ، وينشيء الحلاوة ؟! كل ذلك يجعلنا نسأل عن السبب ، ولا نقف عند المجهول ، ولا نكتفي بوصف الظواهر ، بل لا نصف هذه الظواهر خطأ بأنها أسباب الخلق الحقيقيــة . ونحن نعلم أن القابلية ليست إلا صفة من صفات الشيء ، فكيف تخلقه ؟ وأن الحبـــة بالنسبة للنبات جماد لا يعقل ؛ فكيف تنوعه ؟ وإذا لاحظت أننا مجبرون بحكم هذه النظرة

إلى طبائع الأشياء ، أن نسأل عن حقيقة تلك الطبيعـــة ، وعمّن طبع الاشياء عليها ، وكيف تؤثر ؟ وهل تبدع أم تصنف وتركب ، وهل هي فاعلة بذاتهـا ، أم منفعلة لغيرهـا ؟ أدركت أن الطبيعيين قد نقلونا من مجهول واحد إلى مجاهيل كثيرة ، ومن الأصل الحاسم إلى الفروع للتي لا تحسم الأمر ، فبينما كنا نسأل عن خـالق الحبة وفالق النوى ، انتقلنا بتلك النظرة القصيرة المتجاهلة إلى صفـات انفعالية ليس لها من القدرة على الخلق نصيب ، ولولا قَصْرُ النظر عند الطبيعيين على هذه الأسباب الغريبة المحيرة دون مبرر؛ لوجدنا الجواب شافياً منطقياً منسجماً مع ماتقدم من التحقيق العلمي في الآية الكريمة التالية :

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحيَّ من الميت ، ومخرج الميتِ من الحيّ ، ذلكم الله ربكم فأنّى تؤفكون » (الأنعام : ٩٥) . وبذلك ترجع الأسباب كلها إلى الخالق الأول وتُعرف المجاهيل ، ويحسم الأمر .

ولكي نزيد الأمر وضوحاً ، نضرب لذلك مثلاً . محرك السيارة ، فإن تحرك أجزاء المحرك ، واحتراق البنزين ، والقوة الدافعة في حصول الانفجار ، كل تلك الخصائص قابليات وطبائع ، فهل تجد أن قابلية الاحـــتراق، وخاصية الانفجار ، وقوانين الميكانيك ، هي التي خلقت المحرك وأبدعت السيارة ؟ لاشك أن القابلية غير ذات الشيء ، وأنها إن كانت سبباً في انبعـاع الظواهر ، وبروز المظاهر ، فهو في حدود التركيب والتصنيف ، لا في حدود الخلق والإبـداع ، وهي في المراحل الأخيرة ، لا في المرحـلة الأولى من خلق الوجود . ولذلك إذا أراد الطبيعي الخروج من هذا المأزق ، وأقر معنا من أن هذه الطبائع أسباب فرعية في مجـال التكاثر والتنويـع ، ولا تعدو في حقيقتها نوعية تساند الأسباب التي تكلمنا عنها في مبـدأ السببية . فقلنا له : رجعت إذن إلى الأصـل الذي بحثنا عنه من قبل وأثبتناه ، ولم تستطـع أن تجد ضمن الكائنات من طبائعهـا ما يصح أن يكون سبباً لإخراج الوجود من العدم .

وإذا أردت أن تعرف العلة النفسية في تكوين هذا الإله الزائف (الطبيعة) لدى بعض الناس ، وجدتها في السلسلة التالية .

عاين الانسان صفة الشيء ، فأضاف الصفات بعضها إلى بعض ، وكوّن من مجموع الصفات مفهوماً ، وسمى المفهوم قابلية أو طبيعة ، ومالت النفس إلى الراحة والاختصار . فجعلت من تلك الطبيعة في خيالها ذاتاً مستقلة فعّالة . وجمد الخيال البشري على ذلك ، وتوهم صاحبه أنه وجد إله الوجود ، فأقبل عليه طائعاً ، وأسلم له خاضعاً ، من بعد أن صنعه بيده كما يفعل عابد الوثن ، يصنعه ، ثم يتخيل أن له النفع والضر، ثم يعبده !

وما أشد التشابه بين من كان يعبد الأصنام من قبل ويجادل عنها ، ومن يعبد الطبيعة اليوم ويجادل عنها ، فالعلة النفسية واحده ، ونوعية الخطأ واحدة ، ألا وهي الاصطناع في أول الأمر ، وتَوَهُّمُ الاستقلال والتأثير في آخره ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الخدعة في آيات كريمة ، منها :

« ما تعبدون من دونه **إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم** ، ما أنزل الله بها من سلطان،إن الحكم إلا لله:أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيّم،ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (يوسف : ٤٠) .

« قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا ، فأتنا بما تَعِدُنا إن كنت من الصادقين. قال: قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب، **أتجادلونني في أسماءٍ سميتموها أنتم وآباؤكم**، ما نزل الله بها من سلطان؛فانتظروا إني معكم من المنتظرين » (الأعراف : ٧٠ – ٧١) .

فانظر من أي ناحية ضل البشر من قبل ، ومن أي ناحية يضلون اليوم ، والقضية ليست إلا أسماء يسمونها في البداية ، ثم يجادلون عنها كحقيقة واقعة في النهاية .

وخلاصة القول في الطبيعة : أنها إما قول بأن الأشياء حدثت بذاتها ؛ وهو قول ساقط من كل اعتبار .

وإما قول بأن الصفات تخلق الذات ، وهو أشد تداعياً وسقوطاً من القول الأول ؛ لأنه إذا عجزت ذات الشيء عن خلقه ، فكيف تستطيعه الصفات ؟

وإما اعتبارالقابلية على أنها سبب متأخر كبقية الأسباب، فتفتقرإلى السبب الأول وهو الذي به نقول .

إذن ففي الأحوال الثلاثة لا بد من الرجوع إلى الخالق الأول ، وتأتي الطبيعة متأخرة منفعلة له مفتقرة إليه .

وهكذا نجد أن الطبيعة — إله العصر المزعوم —لم تثبت أمام النقد المنطقي والشرح العلمي ، وليست بالنسبة للموجودات سوى صفاتها وقابلياتها وقوانينها التي تجري عليها ، وأن طبائع الأشياء لا تخلقها ، ومن كان يبحث عن ذات مستقلة لها ، مبدعة فعالة ، خارجة عن نطاق الأشياء ، كان لا شك باحثاً عن عنقاء المغرب .

* * *

التوحيد

إذا كان سراب الطبيعة قد تبدد أمام ناظريك ، وأصبح أفق معرفة الخالق الأول واضحاً لديك ، أمكنك أن تستكمل معرفتك هذه بالتعرف إلى صفاته التي يلزمك بها البحث ، مستنداً إلى الحقائق المتقدمة ، وصفاته التي تستنتج من ذلك فنقول :

هو الأول : ليس قبله شيء ، لأن القول بشيء قبله يجعل له حدوداً ، والحدود من صفات الحوادث ، وقد فندنا ذلك من قبل .

وهو الآخر : وليس بعده شيء ، للمحذور نفسه ، فهو إذن (الأزلي الأبدي) .

وهو الحيّ : الحياة المطلقة ، لأنه الواهب الحياة للأحياء ، ولا يصح إلا أن تكون مطلقة ، لأن النسبية من صفات الحوادث .

وهو السميع العليم ، البصير القدير ، لأن هذه الصفات لوازم صفة الحياة ، ولما كان الإطلاق صفة لحياته ، كان الإطلاق ملازماً لجميع الصفات الأخرى ، بحيث لا يعجز السمع أو البصر أو العلم أو القدرة معجز .

وهو الواحد : الذي لا شريك له في الملك ، ولما لهذه الصفة من أهمية عظيمة ، وخطورة بالغة ، نخصها بالتفصيل التالي :

لعلك أدركت من تسلسل البحث ، ومن ذكر الصفات المتقدمة ، ومن الجزم بكمال الله المطلق ، أن التوحيد حاصل ولايحتاج إلى برهان ، بل إن التعدد هو الذي يفتقر إلى الدليل ، ولكننا على الرغم من ذلك ، نعرض لأمر التوحيد بالتفصيل لعلاقته الصميميّة بواقع الحياة .

القول بالتعدد يمكننا أن نختصره بالتثنية ، فإن ثبتت التثنية ، صح التعدد من غير حصر ، وإن بطلت بطل التعدد أصلا ، ولزم التوحيد .

فالقول بالتثنية يلزم بوجود صفة مميزة بين الاثنين ؛ لأن التساوي التام من جميع الوجوه باطل ، ولايصح بالتصور إلا إذا انطبق الأول على الثاني تمام الانطباق ، فيبقى في النتيجة كائن واحد، ولما انعدمت الصفة المميزة انعدم التمييز. فإن قال مكابر : بإمكان التمييز بين اثنين حال التساوي التام ، قلنا له : أقمت الحجة على نفسك حينما ميزت ، وما ميزت إلا بإدراك صفة مميزة . ووجود صفة مميزة يبطل التساوي التام ، وإذا بطل التساوي التام ، حصل التفاضل بين الاثنين فسقط المفضول وبقي واحد .

والقول بالتثنية ، من الوجهة الرياضية يفيد وجود إطلاقين ، وذلك محال، لأن وجود أحدهما ينافي إطلاق الآخر ، فهو إما أن يدخل في إطلاق الأول ، فلا يبقى إلا الأول . وإما أن يخرج عن نطاق الأول، فيسقط إطلاق الأول المفترض ، ويبقى الثاني ، أي أن الإطلاق محيط ، ولا يحاط به ، والنتيجة ، أنه لم يبق إلا إطلاق واحد .

وهذا كما أنه دليل على التوحيد ، فهو دليل على حدوث العالم ونفي قدمه ، لأن القول بقدمه يفيد وجود إطلاقين ، وذلك محال كما رأيت . ومن هنا نفهم المعنى العميق للآية الكريمة : « ألا له الخلق والأمر » (الأعراف : ٥٤) أي

أنه ليس تصريف الكون وحده حادثاً فحسب ، بل الكون كله : خلقاً ، وتصريفاً مقهور للخالق ، فهو حادث بمادته ومعناه .

وإذا أردنا أن نجلّي معنى هذا البرهان بالنسبة للتوحيد والتعدد ، قلنا : حين وجود اثنين يترتب على أحدهما أن يحيط بالثاني قدرة وعلماً ؛ فإن عجز عن ذلك ، فهو ليس بإله ، وبقي واحد . وإن قدر على ذلك ، سقطت ألوهية الثاني وبقي واحد . وبعض الفلاسفة يسمي هذا بـ : برهان التمانع ، فيقولون : لو كان هناك إلهان ، يريد أحدهما قيام زيد في آن ، ويريد الآخر قعوده في ذلك الآن ، فمحال نفوذ الإرادتين ، لاستحالة المراد ، وجمع الأضداد ، فإن غلبت إرادة أحدهما على الآخر ، فهذا الآخر عاجز مقهور ، فهو ليس بإله ، وبقي واحد .

وقد أورد ذلك ابن جرير الطبري، قال: (لم يخل كل واحد من الاثنين.. من أن يكونا : قويين ، أو عاجزين . فإن كانا عاجزين ، فالعاجز مقهور ، وغير كائن إلهاً ، وإن كانا قويين ، فإن كل واحد منهما يعجزه عن صاحبه عاجز ، والعاجز لا يكون إلها . فإن كان كل واحد منهما قوياً على صاحبه . فهو بقوة صاحبه عليه عاجز) .

إذن لم يبق إلا الواحد المطلق الذي لايعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وما قال من قال بالتعدد إلا عن عقلية ابتدائية ، وفكرة وثنية ، وتصور خيالي مصطنع ، بعيد عن التحقيق ، مصادم للعقل .

ولم يبق في الدنيا من يلتزم العقل والمنطق يقول بالتعدد . بل إن التحقيق لا يرشد إلا إلى التوحيد ، بريئاً من صفات الحوادث ، كالإلصاق والتفريع والولادة . فكما أن التعدد باطل ، فطروؤه من بعد أشد بطلاناً وأقبح، وهكذا ينهار التعدد بجميع صوره كالتثنية والتثليث وغيرهما ، على الرغم من إقامة

كثير من البشر اليوم على هذه العقيدة الفاسدة بكل أسف ، ولو رجعوا قليلاً إلى العقل والمنطق لانهدمت أمامهم هيا كل الوثنية وأساطير التعدد لقوة البرهان ، وصراحة الحجة ، وثورة العقل على هذا التناقض المشين ، فليت شعري ، متى يثور مفكرو العالم الأحرار وعقلاؤه المتجردون على هذه الوثنية النكراء ، فيمزقوا غشاء العنكبوت ، ويقودوا العالم إلى التوحيد ؟!

والقرآن الكريم هو الذي حمل لواء التوحيد للناس ، ونص على ما تقدم من تفنيد التعدد وبطلانه ، وتأكيد التوحيد وثبوته ، في آيات كثيرة حملت أنصع بيان وأقوى برهان ، منها :

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » (الأنبياء : ٢٢) . « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب فتعالى عما يشركون » (المؤمنون : ٩١ — ٩٢) . « هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم » . (الحديد : ٣) « ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط » (فصلت : ٥٤) . « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد » .

وهكذا تثبت حقيقة التوحيد للخالق القديم بما لا يدع مجالاً للريب والتردد .

والأحرى بالعالم المحقق ، أن يدعو الناس إلى ذلك . ويفنّد لديهم نحلة التعدد ، ويفضح زيفها وبطلانها ، لكي يخرجوا من الظلمات إلى النور ، ومن التناقض المشين إلى الانسجام المنطقي المبين . وبذلك تخرج النفس البشرية مما تعانيه من الحيْرة والتردد ، والكبت والقلق ، والجنوح بالنتيجة إلى السبل الشاذة ، والمناهج السخيفة ، المضحكة المبكية ، والتي يثبت التحليل النفسي أنها ليست إلا صورة حسية تعبر عن إفلاس البشر في التماس طريق الحق .

واستكمالا لكل جوانب الإقتنـاع في هذه المسألة ـ مسألة الطبيعـة ، والسببيـة ، والتوحيـد ـ ننقل هذه الرسالة الجيدة لبديـع الزمان سعيد النورسي رحمه الله :

« قالت رسلهم : أفي الله شك فاطر السموات والأرض» (إبراهيم : ١٠) تأمل في هذه الآية وما فيها من الاستفهام الإنكاري ، إنها تدل على أن الحكم بوجود الله ووحدانيته ، من أوضح البدائه لكل من أبصر بعينه مرة هذه السموات والأرض ، غير أنه بالرغم من ذلك ، فإن فيما يلفظ به بعض المسلمين اليوم كلمات ، أقل ما فيها أنها تومىء إلى الكفر بهذه الحقيقة الكبرى .

وسأتناول منها بالبحث ثلاث كلمات لا يرددها في الغالب إلا أحمق ذاهـل عن حقائق الأمور ، وملحد جعل من برذعة إلحاده حلة يفاخر ويتباهى بهـا : إحداها (**أوجدته الأسباب**) والثانية (**تشكل بنفسه**) والثالثة (**اقتضته الطبيعة**) .

إن محالات كثيرة تنبع من الأخذ بمبدأ هذه الكلمات الثلاثة القذرة ، ولو ذهبت أعدها بتفصيل علمي موسع ، لتجاوزت تسعين محالاً من المحالات التي لا يشك فيها علم عالم ولا عقل عاقل ، ولكني سأكتفي من بيان ذلك كله بالعشر فقط أذكره في عبارات موجزة سريعة .

إن (**المحال الأول**) : الناتج عن كلمة (**أوجدته الأسباب**) ، يظهر جلياً في هذا المثال: وقع احتياج إلى معجون مستحضر من بضعة عقاقير وحشائش مختلفة الأنواع والمقادير ، وقام الصيدلي بتحضير هذا المعجون طبق موازين دقيقة بحيث لو أن بعض الأجزاء طغى على الحد المطلوب أو قل عنه ، لأدى ذلك إلى عكس الفائدة المرجوة منه .

فلو أن زلزالاً مثلاً وقع بين تلك القوارير التي استحضر منها الدواء ،

فتكسرت وسال ما فيها، وجرى بعضه إلى بعض ، فاختلطت الأجزاء المتنوعة، وتلاقت إلى بعضها ، فهل يمكن أن يكون المحصول المركب من ذلك الخليط مساوياً لذلك الخليط الذي استحضره الصيدلي بميزانه الدقيق وخبرته العلمية وحسابه المنظم ؟ وهل يقبل مثل هذه الدعوى سوى من فاتته نعمة التفكير والعقل ؟!

إن كل ذي حياة على هذه الأرض ما هو إلا معجون رائع ، ركب من ملايين الأجزاء العجيبة المختلفة ، أخذت بمقدار وضمت إلى بعضها بحكمة ونظام.. فلا ريب أن إسناد هذا الشكل إلى عمل الأسباب المادية الجامدة والعناصر الميتة الصامتة، أشنع وأقبح من الإسناد في ذلك المعجون الذي حصل من تصادم القوارير وسيلان ما فيها .

(**الحال الثاني**) : إن إسناد خلق الأشياء إلى أسبابها المادية ، يستلزم أن يكون للكثير من العناصر والأسباب الدقيقة المتناقضة تأثير مباشر في وجود الأشياء . والحال أن تلاقي الأسباب المختلفة المتباينة إلى بعضها ، باتفاق من جهة، ودقة موزونة من جهة أخرى ، في خلق البعوض مثلاً إن لم يكن من أجلى المحالات . فهو من أشد الممتنعات ، لأن جسم ذلك البعوض مع صغره ذو علاقة بأكثر العناصر والأسباب المادية المبثوثة في الكون ، بل إنه بحق خلاصة وزبدة لها ، فلو سلمنا ادعاء استناد هذا الموجود الصغير إلى تلك الأسباب ؛ للزم أن تحتشد جميع العناصر والأسباب كلها بالذات عند إيجادها ، بل يجب توفرها كاملة في جسمها ، بل في حجيرة من حجيرات جسمها ، لأن السبب المادي ينبغي أن يكون موجوداً مع المسبب داخلاً فيه، أي فينبغي أن تكون هذه العناصر المادية المتناقضة كلها مجتمعة على الدوام ، تعمل عملها في كل حجيرة من حجيرات جسم البعوض ، دون من يدفعها إلى هذا التلاقي والتفاعل .

وهل هذا إلا وهم يستحي بلهاء السوفسطائيين من الهذيان به .

(المحال الثالث) : إن القاعدة البديهية تقول : (إن الواحد لا يصدر إلا من الواحد) أي كل ما يتصف بوحدة النظام والتنسيق والانسجام في مظهره وشكله، فلا بد أن يكون المؤثر فيه واحداً، ضرورة أن التأليف بين المتنافرات، والجمع بين المختلفات في وحدة نوعية أو جنسية ، لا يمكن أن يتم إذا ما اجتمعت عليه أكثر من إرادة ويد واحدة . ولا ريب أن هذا العالم العظيم تجمعه كله وحدة الانسجام والتنظيم، فإسناد وجوده بعد ذلك إلى الأسباب الجامدة المختلطة، التي لا شعور لها ولا عقل ، من أعظم الخرافات المضحكة . هذا إلى أن الأسباب المادية لا يمكن تأثيرها إلا بواسطة التماس والمباشرة ، وغير خاف أن تجانسها إنما يكون بسطح الموجودات وظاهرها ، مع أن في بواطنها ووراء حدود الحس منها من الانتظام والغرابة والانسجام ما ليس في ظواهرها ، فأين أسبابها المادية الموجدة لها ؟ بل أين من يستطيع أن يفرق في غوص ذلك الباطن ، بين السبب المؤثر والسبب المتأثر ، يفصلها ، ويفرق بينهما في الزمن والجوهر والحدود ؟.

أما الكلمة الثانية : (تشكل بنفسه) فهي أيضاً تنطوي على محالات لا تعمى عنها الأبصار . غير أن المفكر المعاند من شأنه أن يبلغ به الكبر مبلغاً يلبسه برذعة الحق . إن الانسان العادي من شأنه أن لا يخضع لمحال واحد يتراءى لعقله ، ولكن مثل هؤلاء المعاندين لا يبالي أن يدافع عن حشد من المحالات ، النابعة عن الباطل الذي أقسم أن لا يتخلى عنه . إنك أيها الانسان لست مادة بسيطة جامدة ملقاة على سطح هذا الوجود ، إنما أنت جهاز معمل دقيق كبير ، بلغ في دقته غاية الروعة والانسجام ... إن في جسمك ذرات عاملة ساعية على الدوام .. إن لجسمك تفاعلاً – في غاية الانتظام – مع سائر مظاهر الوجود من حولك ، إنها أشبه ما يكون بتفاعل البيع والشراء والأخذ والإعطاء .. إن ملايين الذرات العاملة في جسدك تظل ساهرة على حفظ سير هذا التفاعل ودقة انتظامه ، وهكذا تعلم أن الانسجام ليس بين ذرات جسمك وحده ، بل بين

مجموع هذه الذرات والوجود الخارجي من حوله ، إن هذا يعني أن ثمة وحدة انتظام سارية بأتم دقة بين وجودك العضوي ووجود سائر الكائنات من حولك !

فإذا رفضت أن توقن بأن الذرات الساعية في جسدك ، إنما تتحرك فيه طبق قانون الخالق الأزلي العظيم ، لزمك أن تقول إن للذرات التي تتفاعل في حبيرة واحدة من حبيرات عينك مثلاً عقلاً متفلسفاً هائلاً ، وضع به قانون الانسجام والتطابق بين كل ذرة من جسدك من جهة،وذرة من ذرات الوجود من حولك من جهة أخرى، سواء كان ذلك الوجود هواء أو ضياء أو طعاماً أو شراباً أو أي شيء آخر ، كما ينبغي أن يكون لكل ذرة من هذه الذرات فكر ،يدرك منابع دهرك ، وعناصر آبائك وأجدادك ، ويتصور ماضيك ومستقبلك ..... بالخرافة العناد المتكبر !!

أما إذا كان جوابك عن عالم الذرةونظامها نفس جوابك عن عالمك الحسي هذا . أي أن له أيضاً أسبابه المادية وتفاعله الذاتي ، فإن السؤال سيلاحقك عن العالم الثالث الذي من ورائها ، والذي هو أدق من كليهما . وهكذا تتسلسل العوامل والأسباب إلى غير نهاية ، وتمتد إلى حيث يضل وراءها عناد المعاندين وجحود المتكبرين .

الكلمة الثالثة (اقتضته الطبيعة): ويتفرع عنها سلسلة من مظاهر التهافت المضحك ، نجمل بعضها فيما يلي :

١ ـ إن صاحب هذا القول ينبغي أن يلتزم أن كل ذرة من ذرات الوجود تنطوي على مجموعة العوامل والمؤثرات التي أبدعت هذه المجموعة الكونية ، وأنها تشتمل على القدرة والطاقة الكافية لإبداع عالم كامل كالذي نراه من حولنا ، وما على هذه القدرة إلا أن تنفذ ذلك وتعمل عملها .

إذ ما دام في كل ذرة من ذرات هذا الوجود طبيعتها الخلاقة ، المدبرة الحكيمة ، منفصلة عن غيرها ، غير مرتبطة بقيادة عامة لها ولأمثالها ، فلا مناص

من التزام هذه النظرية ... تماماً كالذي يرى شعاع الشمس تسطع من قطرات المياه، وقطع الزجاج والأجرام الشفافة، ويأبى إلا أن يزعم أن في كل جرم من هذه الأجرام (طبيعته) الشعاعية المستقلة بذاتها. فلا ريب أنه ينبغي أن يلتزم ويعترف بوجود شمس حقيقية مستقلة ضمن كل جرم من هذه الأجرام المضيئة على حدة.

ومن أراد أن يضحك من خرافة هذه النتيجة؛ فليضحك قبل ذلك من خرافة المقدمة التي راح يزعمها ويتبناها.

٢ - إن على صاحب هذا القول أن يلتزم بأن شبراً واحداً من أي أرض معينة، تنطوي على ما لاتنطوي عليه دول العالم كله من المصانع والمطابع والمواد الأولية المختلفة؛ ذلك أن قدحاً واحداً من التراب الذي لاتزيد مساحته على شبر، يمكن أن تستنبت فيه معظم أنواع نباتات وأزهار العالم، على سبيل التناوب. فلو لم تكن قدرة الخالق العظيم هي التي تقذف في تلك الأرض قدرة التفاعل، مع ما تستقبله من مختلف النباتات والبذور، لتعطي كلاً منها ذاته وشكله وخصائصه، إذاً لكان لابد أن توجد في تلك التربة عناصر وقابليات متناقضة، بل ينبغي كما قلت أن تكون طاقة الصناعات الأوربية كلها محشورة في ذلك الشبر من الأرض، إذ من المعلوم أن مواد النطف والبذور واحدة لاتختلف، وهي عبارة عن مزيج: مولد الماء، ومولد الحموضة، والكربون، والآزوت، ومواد الماء، والهواء والحرارة والضياء، هي الأخرى بسيطة لا تختلف في جريانها حول نبت وآخر.

ومع ذلك؛ فإن هذه النباتات تنبثق فوق ذلك الشبر من الأرض، كل واحد يحمّل صفاتها وخصائصها ولونها ورائحتها، فلا بد أن يوجد في ذلك التراب شيء آخر غير المواد المعروفة للتراب والبذر والهواء، يمد هذه البذور بخصائص التشكل والتميز. فانظر وتأمل في مدى بعد هذا الكلام من الفكر والعقل!!

٣ – أذكر هنا مثالاً كنت كتبته في بعض الرسائل الأخرى ، يوضح حالة المنتسبين إلى الطبيعة . . لنفرض أن في قلب بعض الصحارى بناء رائعاً ، مشيداً على أحسن طرز وأدق هندسة . . . وصادف أن دخل هذا الصرح بدوي متوحش ، لم يسبق أن رأى في حياته غير صروح الخيام ، فتأمل في براعته ونقوشه ومظاهر إتقانه ، ثم حدّث نفسه أن ليس في هذه الصحراء كلها من يقدر أن يبدع مثل هذا الإبداع ، فلا بد أن الباني يجثم في جوف البناء نفسه . . ثم راح ينظر ويفتش عنه في الغرف من حوله ، فلم ير أحداً ، ولكنه عثر على أوراق ، فيها : خارطة البناء ، ومواده ، وتفاصيل هندسته ، ففكر قليلاً أن هذه الأوراق لا يد لها ولا بصر ، فليس من شأنها أن تشيد بنـــاء . . ولكنه مالبث أن عاد فتعلق بها قائلاً : ولكن ها هي ذي تبحث عن قوانين تشييده وكيفية تأليفه ، إذاً فليس ثمّة غيرها المشيد والباني .

فكذلك يدخل بدوي متوحش لم يضم عقله إلا اسم الطبيعة إلى صرح هذا الكون العظيم ، فيدهشه أنه يرى إبداعاً لايجـــد من حوله – بسبب عقله القاصر – من أبدعه ، ويتأمل في ثناياه وأطرافه ، فيعثر على اللوح الذي سجلت فيه قوانين الفطرة الإلهية وقواعد صنعته الإبداعية – المسماة خطأ بالطبيعة – فينبهر لها ، ويحدث نفسه – وهو في غيبوبة عقلية تامة – أن لابد أن هذا اللوح بقوانينه هو الذي أبدع هذا الإبداع ، وصنع هذا الصنع .

ونحن نقول : أيهـــا السكران الأحمق ، ارفع رأسك عن بئر الطبيعة ، وانظر وراءك إلى صانع الكون . إن ذلك الذي بنى هذا الصرح ، ووضع أمام عينيك في جنباته ، قانون تشييده ، ودستور إيجاده ، إنما هو الخلاق الأزلي إله العالمين جل جلاله ؛ لا الطبيعة التي أنت أجحد منها وأجهل .

إن الطبيعة صنعـــة لا صانع ، نقش لانافش ، حكم لا حاكم ، شريعة لاشارع ، مخلوق لا خالق ، منفعل لافاعل ، مصدَّرة لامصدِّر .
ا هـ كلام الشيخ سعيد النورسي رحمه الله تعالى .

دلالات الظواهر

على الله وأسمائه الحسنى

هناك قاعدة تقول: إن الآثار تدل على الأسماء، والأسماء تدل على الصفات، والصفات تدل على الذات ، ولنضرب على هذه القاعدة مثلاً يوضحها : لو أخذنا كتاباً ودرسناه ، فإننا بواسطة دراستنا للكتاب ، نستطيع أن نتعرف على كثير من صفات صاحبه ، وبالتالي نتعرف عليه تعرفاً ما ، فإذا كان في الكتاب أدب ، حكمنا على صاحبه أنه أديب ، وإذا كان مبتكراً ، حكمنا أن صاحبه مبدع ، وإذا كان لايخرج على قواعد النحو حكمنا بأنه نحوي ، وإذا كان بليغاً ، حكمنا على صاحبه بأنه بليغ ، وإذا كان فيه إحاطة في موضوعه ، قلنا عن صاحبه بأنه محيط ، وإذا كان فيه دقة في العرض وجمال ، حكمنا على صاحبه بأنه ذواقة ودقيق ، وإذا كان الكتاب مرتباً منظماً منسجماً متسلسل الأفكار ، حكمنا على صاحبه بأنه ناضج ، وإذا كان في الكتاب علم كثير ، حكمنا على صاحبه بأنه عليم ، وهكذا ، فكل ظاهرة في الكتاب ، تدلنا على صفة من صفات صاحبه ، نسمي صاحبها بسببها اسماً مشتقاً منها ، له علاقة فيها ، وبالتالي نكون قد عرفنا صاحب الكتاب نوع معرفة .

ولنطبق القاعدة الآنفة الذكر على بحثنا .

فقد استعرضنا في الصفحات الماضية تسع ظواهر كونية ، كل ظاهرة من هذه الظواهر تدل على اسم من أسماء الله أو أكثر ، فالكون من آثار الله وحوادثه من آثار الله كذلك ، قال تعالى : « فانظر إلى آثار رحمة الله » (الروم : ٥٠) وآثار الله تدل على أسمائه ، وأسماؤه تدلنا على صفاته، وصفاته تدلنا على ذاته .

فظاهرة القدم وحدوث العالم ، تدل على اسم الله الأول والخالق ، وظاهرة الحياة تدل على اسم الله المحيي والبارىء والمميت ، وظاهرة الهداية ، تدل على اسمي الله الهادي والمضل ، وظاهرة الإبداع ، تدل على اسم الله البديع ، وظاهرة الإجابة ، تدل على اسم الله المجيب ، وظاهرة النعمة ، تدل على اسم الله المنعم المعطي ، وظاهرة الوحدة ، تدل على اسم الله الواحد ، وظاهرة الحكمة ، تدل على اسم الله الحكيم .

وعلى هذا ؛ فكل ظاهرة في الكون ذكرناها أو لم نذكرها ، تدل على اسم من أسماء الله تعالى. فظاهرة رزق كل مخلوق ، تدل على اسم الله الرزاق، وظاهرة الإعزاز والإذلال ، تدلان على اسم الله المعز والمذل ، وظاهرة ثبات القوانين في الكون ، تدل على اسم الله المهيمن ، وظاهرة وجود المخلوقات ، تدل على اسمي الله القادر والمقتدر ، وظاهرة ترتيب الأشياء بعضها وراء بعض ، تدل على اسمي الله المقدم والمؤخر ، وظاهرة الندم ، تدل على اسم الله التواب والغفار والعفو ، وظاهرة الانتقام ، تدل على اسم الله المنتقم، وظاهرة النفع والضرر ، تدل على اسم الله النافع والضار ، وظاهرة إمهال المخالفين عن أمر الله ، تدل على اسم الله الصبور، وهكذا فما من ظاهرة إلا وتدل على صفة لله واسم .

غير أن دلالة الظواهر على الأسماء والصفات ، تختلف باختلاف المتعلق ، واختلاف الارتباط :

فمنها ما يدل على صفات الفعل .

ومنها ما يدل على صفات الذات الوجودية .

ومنها ما يدل على صفات الذات السلبية ، وكلها تدل على موجود .

ولتوضيح الفروق بين هذه الصفات ، نقول :لوقلنا:عن إنسان بأنه قاتل ، فتلك صفة فعل من أفعاله، ولو قلنا : إنه سميع، فتلك صفة وجودية له، ولوقلنا: إنه لايشرب الخمر ، فتلك صفة سلبية له ، ولكن الأنواع الثلاثة من الصفات ، تدل على وجود إنساني معين .

والحقيقة أننا نعرف الصفات الوجودية بصفات الفعل . والصفات السلبية بصفات الفعل ونعرف الذات بكل الصفات .

وقبل أن نطبق ما قلناه على قضية التعرف على الله ، نحب أن نذكر ماذا نعني بكلامنا : صفات وجودية ، أو صفات فعل ، أو صفات سلبية .

المراد بالصفة السلبية بالنسبة للذات الإلهية ، الصفات التي تدل على سلب ما لايليق به سبحانه وتعالى ، كالوحدانية . والمراد بالصفات الوجودية بالنسبة للذات الإلهية ، الصفات التي تدل على معنى زائد على الذات ، كالعلم والسمع . والمراد بصفات الفعل ، تعلقات القدرة بالممكنات ، فكل تعلق لقدرة الذات الإلهية بممكن ، يدل على اسم وصفة وفعل .

وهذه كلها تدل على وجود الذات ، وصفة الوجود للذات الإلهية تسمى صفة نفسية ، لأنها تدل على نفس الذات دون معنى زائد عليها . وإذن فما دل على الذات دون معنى زائد ، نسميه صفة نفسية ، وما دل على صفة مدلولها وجودي دون معنى زائد ، نسميه صفة وجودية ، وما دل على صفة مدلولها عدمي ، نسميه صفة سلبية ، وليس كلامنا هنا يعني نفي الصفات السمعية ، فالحديث عن الصفات السمعية محله . وإنما نقصد هنا الصفات التي يدلنا عليها مجرد العقل السليم ، بدراسة سليمة للكون ، ونص الكتاب والسنة هو الهادي ، وتوافق العقل معه دليل سلامة العقل .

فكل الظواهر التي نراها في هذا الكون، تدل على أربع صفات وجودية:

• العلم – والإرادة – والقدرة – والحياة – فلولا القدرة ما كان هـــذا الكون ، ولولا تخصيص الإرادة الأشياء على ما هي عليه ما كان هذا الكون ، ولولا العلم ما كان شيء ، فأي جزء من أجزاء العالم يدل على علم سبق ، وإرادة خصصت وقدرة أبرزت ، ومن لوازم اتصاف ذات بالعلم والإرادة والقدرة ، أن يكون لها حياة .

والظواهر كلها تشير ، إلى أن هذه الذات المتصفة بالعلم والإرادة والقدرة والحياة ، والتي خلقت هذا الكون ، متصفة كذلك بالقدم فلا أول لها ، والبقاء فلا نهاية لها ، والوحدانية فلا ند لها ، ومخالفتها المخلوقات ، فلا يشبهها شيء من خلقها ، وقيامها بنفسها ، فلا تحتاج إلى موجد أو مخصص .

والظواهر كلها تشير ، إلى أن هذه الذات ، كاملة منزهة عن كل نقص ، ومن النقص العمى ، فهي بصيرة، ومن النقص الصمم ، فهي سميعة ، ومن النقص البكم ، فهي متكلمة .

والظواهر كلها تشير إلى موجود متصف بهذه الصفات .

موجود لابداية له فهو الأول ، ولا نهاية له فهو الآخر ، ولا ند له فهو للواحد ، ولا مشابه له فهو القدوس ، ولا حاجة به لأحد فهو القيوم .

موجود متصف بالقدرة فهو قادر ، وبالحياة فهو حي ، وبالسمع فهو سميع وبالبصر فهو بصير، وبالكلام فهو متكلم، وبالعلم فهو عليم، وبالإرادة فهو مريد.

ومقتضى كثرة أفعال الله التي هي أثر عن العلم والإرادة والقدرة ، أن يكون لله أسماء كثيرة، ولكن الأدب مع الله ألا نسمي الله إلا بما سمى به ذاته، على لسان الوحي الثابت بالدليل القاطع ؛ لأنه – جل جلاله – لا يعرف جلاله

إلا هو . وحتى لا ننسب إلى الله إلا ما يليق بذاته « الخير كلـــه بيديك والشر لا ينسب إليك » فلا نسميه إلا بما سمى به نفسه، ومجموع ما سمى به ذاته ، يطلق عليه اسم :(الأسماء الحسنى) « الله لا إله إلا هو ، له الأسماء الحسنى » (طه : ٨) . « قـل ادعُ الله أو ادعُ الرحمـن أياً مـــا تدعو فله الأسمـاء الحسنى » (الإسراء : ١١٠) . « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في أسمائه » (الأعراف : ١٨٠) . وما من اسم من هذه الأسماء الحسنى الواردة في الكتاب والسنة ، إلا وفي الكون ظاهرة تدل عليه .

وهذه الأسماء كما وردت في الكتاب والسنة تعبر عن صفات سلبية أحياناً، وعن صفات وجودية أحياناً ، وعن صفات كمال أحياناً، وعن صفات فعل أحياناً، فهي قد جمعت أمهات هذه الصفات كلها .

والأسماء الواردة في الكتاب والسنة لله تعالى كثيرة ، ومـع هـذا فهي ليست كل أسماء الله . فقد ورد في الحديث: « اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك . أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك » .

ومن هنا نعلم أن ما ذكر ليس هو كل الأسماء الحسنى ، فإن جلال الله لايتنـــاهى ، ولكن ما ذكر ، تدلنا عليه ظواهر الكون بشكل صريح أو ضمني ، فإذا اجتمعت دلالة العقل مـــع دلالة النص واتفقا ، فذلك برهان سلامة العقل والنص ، على أنه في معرض الحديث عن الأسماء والصفات ، ينبغي أن نلاحظ هاتين النقطتين اللتين أشار إليهما الأستاذ البنا رحمه الله :

يقول الأستاذ البنا تحت عنوان (بين صفات الله وصفات الخلق) :

والذي يجب أن يتفطن له المؤمن ، أن المعنى الذي يقصد باللفظ في صفات الله تبارك وتعالى ، يختلف اختلافاً كلياً عن المعنى الذي يقصد بهـذا اللفظ عينه في صفات المخلوقين ، فأنت تقول : الله عالم والعلم صفة لله تعالى ، وتقول : فلان عالم

والعلم صفة لفلان من الناس ، فهل مـــا يقصد بلفظة العلم في التركيبين واحد ؟ حاشا أن يكون كذلك؛ وإنما علم الله تبارك وتعالى علم لايتناهى كماله ، ولايعد علم المخلوقين شيئاً إلى جانبه . وكذلك الحياة ، وكذلك السمع ، وكذلك البصر ، وكذلك الكلام ، وكذلك القدرة والإرادة ، فهذه كلها مدلولاتُ الألفاظِ فيها تختلف عن مدلولاتها في حق الخلق ، من حيث الكمال والكيفية اختلافاً كلياً ، لأنه تبارك وتعالى لايشبه أحداً من خلقه ، فتفطَّن لهذا المعنى فإنه دقيق ، ولست مطالباً بمعرفة كنهها ؛ وإنما حسبك أن تعلم آثارها في الكون ، ولوازمها في حقك ، والله نسأل العصمة من الزلل وحسن التوفيق .

وكذلك يقول الأستاذ تحت عنوان (التفكر في ذات الله) :

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن قوماً تفكروا في الله عز وجل ، فقال النبي ﷺ : « تفكروا في خلق الله ، ولا تتفكروا في الله ، فإنكم لن تقدُروا قدره » قال العراقي : رواه أبو نعيم في الحلية بإسناد ضعيف ، ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب بإسناد أصح منه ، ورواه أبو الشيخ كذلك ، وهو على كل حال صحيح المعنى .

وليس ذلك حجراً على حرية الفكر ، ولا جموداً في البحث ، ولا تضييقاً على العقل ولكنه عصمة له من التردي في مهاوي الضلالة ، وإبعاد له عن معالجة أبحاث لم تتوفر له وسائل بحثها ، ولا تحتمل قوته مهما عظمت علاجها ، وهذه هي طريقة الصالحين من عباد الله العارفين بعظمة ذاته وجلال قدره .

فاحصر همتك في إدراك عظمة ربك ، بالتفكير في مخلوقاته ، والتمسك بلوازم صفاته .

* * *

ويجب أن نذكر في هذه الفقرة – عن القرآن والسنة ، على اعتبار أنهما المصدران الوحيدان للمعرفة ، عن طريق الوحي الصادق الذي يقوم عليه الدليل الكامل ، كما سنرى إن شاء الله في البحث الثاني – مجمل صفات الله كما وردت في القرآن ، وبعضاً من أسمائه الحسنى كما وردت في الكتاب والسنة ، لنرى أن ما دلتنا عليه الظواهر بالعقل ، دلنا عليه الكتاب والسنة بالوحي عن طريق النقل.

يقول الأستاذ البنا تحت فصل (مجمل صفات الله في القرآن) :

أشارت آيات القرآن الكريم إلى بعض الصفات الواجبة لله تعالى ، والتي يقتضيها كمال الألوهية ، وإليك بعض هذه الآيات الكريمة :

١ – وجود الله تعالى

قال الله تعالى : « الله الذي رفع السموات بغير عَمَدٍ ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجري لأجل مسمىً ، يدبرُ الأمر ، يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مدّ الأرض ، وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يُغشي الليل النهارَ ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قِطَعٌ متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونُفَضِّلُ بعضها على بعض في الأُكُل ، إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (الرعد : ٢ – ٤) » وقال تعالى : « وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون . وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون . وهو الذي يحيي ويميت ، وله اختلاف الليل والنهار ، أفلا تعقلون » (المؤمنون : ٧٨ – ٨٠) فكل هذه الآيات تنبئك بوجود الله تبارك وتعالى ، وتستدل عليه بما ترى من تصرفاته في شئون هذا الكون العجيب .

٢ – ٣ – قدم الله تعالى وبقاؤه

قال الله تعالى : « هو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، وهو بكل شيء عليم »(الحديد : ٣) وقال تعالى : « ولا تَدْعُ مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه تُرجعون » (القصص : ٨٨) وقال تعالى :« كلٌ من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » (الرحمن ٢٦ – ٢٧) وفي هذه الآيات الكريمة إشارة إلى صفتي القدم والبقاء لله تبارك وتعالى .

٤ – مخالفة الله للحوادث

قال الله تعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » وقال تعالى:« فاطر السموات والأرض، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام أزواجاً ، يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » (الشورى : ١١) وفي ذلك إشارة إلى مخالفته تبارك وتعالى للحوادث من خلقه وتنزهه عن الولد والوالد والشبيه والنظير .

٥ – قيام الله تعالى بنفسه

قال الله تعالى :« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد »(فاطر: ١٥) وقال تعالى:« ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم، وما كنت متخذ المضلين عضداً » (الكهف : ٥١) ونضيف : قال تعالى : «إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » (فاطر : ٤١).« الله لا إله إلا هو الحي القيوم » (البقرة : ٢٥٥) وفي ذلك إشارة إلى قيامه تعالى بنفسه واستغنائه عن خلقه ، مع حاجتهم إليه .

٦ – وحدانية الله تعالى

قال الله تعالى : « وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إله واحد فإياي فارهبون . وله ما في السموات والأرض وله الدينُ واصباً ، أفغيرَ الله تتقون ! ومابكم من نعمة فمن الله، ثم إذا مسكم الضرُّ فإليه تجأرون »(النحل: ٥١–٥٣) وقال تعالى :« لقد كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة ،ومامن إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ، ليمسّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلايتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم »(المائدة : ٧٣ – ٧٤) وقال تعالى: « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشِرُونَ . لو كانَ فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لفسدتا ، فسبحان الله ربِّ العرشِ عما يصفون . لا يُسألُ عما يفعل وهم يُسألون . أم اتخذوا من دونه آلهةً ، قلْ : هاتوا برهانكم هذا ذِكْرُ منْ معي وذكر من قبلي ، بل أكثرهم لا يعلمونَ الحقَّ ، فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول ، إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (الأنبياء : ٢١ – ٢٥) .

وقال تعالى :« قل : لِمَن الأرضُ ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل : أفلا تذكرون . قل : من ربُّ السموات السبع وربُّ العرش العظيم . سيقولون: لله ، قل: أفلا تتقون . قل : من بيده ملكوت كلِّ شيء ، وهو يُجيرُ ولا يُجارُ عليه ، إن كنتم تعلمون . سيقولون : لله ، قل : فأنّى تُسحَرون . بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون . ما اتخذ الله من ولدٍ وما كان معه من إله . إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولَعَلا بعضُهم على بعضٍ ، سبحان الله عما يصفون . عالمِ الغيب والشهادة فتعالى عما يُشركون » (المؤمنون : ٨٤ – ٩٢) .

وقال تعالى : « قل الحمد لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى ، آللهُ خيرٌ أمّا يشركون . أمَّن خلق السمواتِ والأرضَ ، وأنزل لكم من السماء ماءً ،

فأنبتنا به حدائق ذاتَ بهجة ٍ، ما كان لكم أن تُنبتوا شجرها ، أإله مع الله ! بل هم قوم يَعْدلون . أمّن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله ! بل أكثرهم لا يعلمون . أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشفُ السوء ، ويجعلكم خلفاءَ الأرض ، أإله مع الله ! قليلاً ما تذكّرون ، أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسلُ الرياح بُشراً بين يدي رحمته ، أإله مع الله ! تعالى الله عما يشركون . أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده، ومن يرزقكم من السماء والأرض ، أإله مع الله ! قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (النمل : ٥٩ — ٦٤) .

إلى غير ذلك من الآيات التي تثبت أنه تعالى واحد في ذاته، واحد في صفاته ، واحد في أفعاله وتصرفاته ، لا رب غيره ، ولا إله سواه .

٧ — قدرة الله تعالى

قال الله تعالى : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث ؛ فإنّا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة، ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلقة، لنبين لكم ، ونُقِرُّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يُتَوَفّى ، ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العُمُرِ ، لكيلا يعلم من بعد علمٍ شيئاً ، وترى الأرض هامدة ؛ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير . وأنّ الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها ؛ وأن الله يبعث من في القبور » (الحج: ٥ — ٧) . وقال تعالى: « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض، ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متّخذ المضلين عضداً » (الكهف : ٥١) وقال تعالى : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وما مسّنا من لغوب » (ق : ٣٨) وقال تعالى : « وهو الذي مرج البحرين : هذا عذبٌ

فرات ، وهذا ملح اجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً . وهو الذي خلق من الماء بشراً، فجعله نسباً وصهراً، وكان ربك قديراً » (الفرقان : ٥٣ — ٥٤) وقال تعالى: « ألم تر أن الله يزجي سحاباً ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاماً، فترى الوَدْقَ يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء، ويصرفه عن من يشاء يكاد سَنا برقه يذهب بالأبصار. يقلّب الله الليل والنهار؛ إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار . والله خلق كل دابة من ماء : فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله مايشاء، إن الله على كل شيء قدير » (النور : ٤٣ — ٤٥) .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عظيم قدرته تبارك وتعالى، وباهر عظمته .

٨ — إرادة الله تعالى

قال الله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون » (ياسين : ٨٢) وقال تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميراً » (الإسراء : ١٦) وقال تعالى حكاية عن الخضر في قصته مع موسى عليهما السلام : « فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ، ويستخرجا كنزهما ؛ رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمري، ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً » (الكهف : ٨٢) وقال تعالى : « يريد الله ليبين لكم، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً . يريد الله أن يخفف عنكم ، وخُلِقَ الانسان ضعيفاً » (النساء : ٢٦ — ٢٨) .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تشير إلى إثبات إرادة الله تعالى ، وأنها فوق كل إرادة ومشيئة : « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين » (التكوير : ٢٩) .

٩ ـ علم الله تعالى

قال الله تعالى : « الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، وله الحمد في الآخرة ، وهو الحكيم الخبير . يعلم ما يلج في الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور » (سبأ : ١ — ٢) وقال تعالى : « يعلم ما في السموات والأرض ، ويعلم ما تسرون وما تعلنون ، والله عليم بذات الصدور » (التغابن : ٤) وقال تعالى : حكاية عن لقمان في وصيته لابنه : « يابني إنها إنْ تكُ مثقالَ حبة من خردل ، فتكن في صخرة ، أو في السموات ، أو في الأرض ، يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير » (لقمان : ١٦) وقال تعالى في حكاية ما وقع بين شعيب وقومه : «قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودنّ في ملتنا ، قال : أو لو كنا كارهين !. قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم ، بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها ، إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علماً ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين » (الأعراف : ٨٨ — ٨٩) وقال تعالى : « ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ، ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم » (المجادلة : ٧) وقال تعالى: « وما تكون في شأن ، وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل ، إلا كنا عليكم شهوداً . إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا في كتاب مبين »(يونس : ٦١) .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على سعة علمه تبارك وتعالى ، وإحاطته بكل شيء ، قلّ أو كثر ، دقّ أو عظم .

١٠ - حياة الله تعالى

قال الله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في الأرض »(البقرة : ٢٥٥) وقال تعالى:« ألم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل . من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان » (آل عمران : ١ - ٤) . وقال : « الله الذي جعل لكم الأرض قراراً ، والسماء بناء ، وصوركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله رب العالمين . هو الحي لا إله إلا هو ، فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين » (غافر : ٦٤ - ٦٥) . إلى غير ذلك من آيات كثيرة ، تدل على أن الله تبارك وتعالى ، متصف بالحياة الكاملة، التي ليس ثمّ أكمل منها .

١١ - ١٢ - سمع الله تعالى وبصره

قال الله تعالى : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ، وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير » (المجادلة : ١) وقال تعالى: « أرأيت الذي ينهى. عبداً إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى »(العلق : ٩ -١٤) وقال تعالى لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون :« اذهبا إلى فرعون ؛ إنه طغى . فقولا له قولاً ليناً ، لعله يتذكر أو يخشى . قالا : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا ، أو أن يطغى . قال : لاتخافا إنني معكما ، أسمع وأرى » (طه : ٤٣ - ٤٦) وقال تعالى: « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، والله يقضي بالحق ، والذين يدعون من دونه لايقضون بشيء ، إن الله هو السميع البصير » (غافر : ١٩ - ٢٠) إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على اتصافه تبارك وتعالى بالسمع والبصر .

١٣ – كلام الله تعالى

قال الله تعالى : « وكلم الله موسى تكليماً » (النساء : ١٦٤) وقال : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، وقدكان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وهم يعلمون. » (البقرة : ٧٥) وقال : « وإن أحدٌ من المشركين استجارك ، فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه » (التوبة : ٦) إلى غير ذلك من الآيات ، التي تدل على اتصافه تبارك وتعالى بصفة الكلام .

* * *

وقد سمى الله عز وجل ذاته في القرآن بأسماء كثيرة غير التي ذكرناها ... فمن الآيات التي ذكرت أسماء الله قوله تعالى : « هو الله الذي لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم . هو الله الذي لا إله إلا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » (الحشر : ٢٢–٢٤) . وقوله تعالى : « سبح اسم ربك الأعلى » (الأعلى : ١) وقوله : « فسبح باسم ربك العظيم » (الواقعة : ٧٤). والآيات في هذا الباب كثيرة . كما ورد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء كثيرة في أحاديث صحيحة – وهو أعرف الناس بذات الله عز وجل – منها : « لله تسعة وتسعون اسماً ، مائة إلا واحداً ، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » رواه البخاري ومسلم ، وفي رواية أخرى : « من أحصاها » ورواه الترمذي وزاد : « هو الله الذي لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ،

الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، البـاقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور .

وهذه الصفات التسعة والتسعون ، ليست كل ماورد في أسماء الله تبارك وتعالى ، بل نجـد الأحاديث التي تزيد على هذه الصفات . ففي رواية أخرى الحديث السابق : « الحنان ، المنان ، البديع » وورد كذلك من أسمائه تعالى : « المغيث » و « الكفيل » و « ذو الطـّول » و « ذو المعارج » و « ذو الفضل » و « الخلاق » .

قال أبو بكر بن العربي في شرح الترمذي ، حاكياً عن بعض أهل العلم : إنه جمع من الكتاب والسنة من أسمائه تعالى ألف اسم ، وفي كلام صاحب القصد المجرد ما يفيد ذلك ، وأشار الشوكاني إلى ذلك في تحفة الذاكرين ، ثم قال : « وأنهض ماورد في إحصائها الحديث المذكور ، وفيه الكفاية » وعلى اعتبار أن كل اسم من أسماء ذاته القدسية ، إنما يدل على صفة من صفاته تعالى ويعبر عنها ، فإن كل اسم من هذه الأسماء : إما أن يدل على صفة كمال ، أو على صفة وجود ، أو على صفة سلب ، أو على صفة فعل ، ومرجع هذه الصفات كلها وهذه الأسماء

إلى الثلاث عشرة صفة ، المذكورة في الفقرة السابقة ، فهي أمهات صفات الفعل ، والسلب ، والكمال ، والوجود ، والمعاني . أ هـ .

* * *

ومرة ثانية نحب أن نؤكد ، أن الخالق غـــير المخلوق ، وأن الله لايشبه خلقه في شيء : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » (الشورى:١١) وأن من أســس ضلال البشر في باب الاعتقاد ، اعتقاد مشابهة الله لخلقه ، وقـــد رد الله في القرآن على أي تصور من هذه التصورات ؛ فمثلاً زَعْمُ اليهود أن الله خلق الخلق، واستراح في اليوم السابع بعد ستة أيام خلق – وهذا نوع تشبيه – فرد الله عليهم بقوله : « ولقدخلقنا السماوات والأرض ومابينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب» (ق : ٣٨) أي تعب ، ورد على النصارى اعتبارهم أن الله مؤلف من أجزاء ، وأن من عباده من هو جزء منه ، فقال : « وجعلوا له من عباده جزءً ، إن الانسان لكفور مبين » (الزخرف : ١٥) .

فالمسلم يثبت لله ما أثبته لذاته من صفات وأسماء ، وينزه الله عز وجل بما نزه به نفسه على لسان رسوله : « سبحان الله عما يصفون . إلا عباد الله المخلصين » (الصافات: ١٥٩ - ١٦٠) فالله تعالى موجود ووجوده ليس كمثله شيء ، وبصير وبصره ليس كمثله شيء ، وسميع وسمعه ليس كمثله شيء ، وهكذا في كل صفة لله عز وجل ، وإنما نعرف الله عز وجل بالعقل وبما عرّفنا هو جل جلاله على ذاته وصفاته وأسمائه بكتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وكتاب الله لايناقض بعضه ، وسنة رسول الله كذلك لاتناقضه ؛ بل كلاهما يفسر الآخر ، وكل منهما يفسر بعضه ، وإنما نعرف الله بمجموع ماورد فيهما ، دون أن نفهم فهماً نجعل كتاب الله وسنة رسوله يناقضان بعضهما بعضاً .

ولا نحب التكلف في فهم النصوص ولا التعسف ، ولا نحب الخوض أصلاً

في قضية لها علاقة في الذات الإلهية ، إلا بما يفيد الإيمان والتسليم والتنزيه ، وعقيدتنا لذلك سهلة بسيطة ، مجمع عليها ، لا ينكرها علينا أحد . فالله موجود ووجوده ليس كمثله شيء ، وسميع وسمعه ليس كمثله شيء ، وبصير وبصره ليس كمثله شيء ، ومستو على المعنى الذي أراده بالاستواء ؛ واستواؤه ليس كمثله شيء ، ويجيء ومجيئه ليس كمثله شيء ، وقريب وقربه ليس كمثله شيء ، وهكذا في كل اسم أو صفة وصف الله بها ذاته : « ولا يحيطون به علماً » (طه : ١١٠) هكذا كان أدب الصحابة في هذا الشأن ، فلا نتجاوز إلى غيره .

أخرج الدارمي عن سليمان بن يسار : أن رجلاً قدم المدينة ، فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل إليه عمر وقد أعد له عرجوناً ، فقال : من أنت قال: أنا عبد الله صبيغ ، فأخذ عمر العرجون ، وقال : أنا عبد الله عمر ، فجعل يضربه حتى دمي رأسه ، فقال : يا أمير المؤمنين حسبك ؛ قد ذهب الذي كنت أجد في رأسي .

لقد أدرك عمر ما يترتب على سؤال هذا الرجل من أمور ، وهذا واقعنا شاهد على أن الأمة ، منذ بحثت هذه الأمور ، اختصمت وتفرقت ؛ لذلك قال مالك للسائل عن الاستواء : « والسؤال عنه بدعة » نسأل الله أن يطهر قلوبنا من البدع .

ونحب أن نختم هذا البحث بذكر ملاحظتين : إحداهما حول ما يذكره بعض الناس عن خواص أسماء الله ، والثانية حول اسم الله الأعظم .

١ ـ قضية خواص أسماء الله الحسنى .

يقول الأستاذ البنا : يذكر البعض أن لكل اسم من أسماء الله تعالى خواص وأسراراً ، تتعلق به على إفاضة فيها أو إيجاز ، وقد يتغالى البعض فيتجاوز

هذا القدر، إلى الزعم أن لكل اسم خادماً روحانياً يخدم من يواظب على الذكر به ، وهكذا ، والذي أعلمه في هذا – وفوق كل ذي علم عليم – أن أسماء الله تعالى ألفاظ مشرّفة ، لها فضل على سائر الكلام ، وفيها بركة ، وفي ذكرها ثواب عظيم ، وأن الانسان إذا واظب على ذكر الله تعالى ، طهرت نفسه ، وصفت روحه ، ولاسيما إذا كان ذكره بحضور قلب وفهم للمعنى ، أما مازاد على ذلك فلم يرد في كتاب ولاسنة . وقد نهينا عن الغلو في دين الله تعالى ، والزيادة فيه ، وحسبنا الاقتصار على ماورد .

٢ – قضية اسم الله الأعظم .

يقول الأستاذ البنا : ورد ذكر اسم الله الأعظم في أحاديث كثيرة منها :

١ – عن بريدة رضي الله عنه ، قال : سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو وهو يقول : « اللهم إني أسألك ، بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . قال : فقال : والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى . » رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وقال المنذري : قال شيخنا أبو الحسن المقدسي : هو إسناد لا مطعن فيه ولا أعلم أنه روي في هذا الباب حديث أجود إسناداً منه ، وقال الحافظ ابن حجر : هذا الحديث أرجح ماورد في هذا الباب من حيث السند .

٢ – عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : دخل النبي ﷺ المسجد ورجل قد صلى وهو يدعو ويقول في دعائه : اللهم لا إله إلا أنت ، المنان ، بديع السموات والأرض ، ذا الجلال والإكرام . فقال النبي ﷺ : « أتدرون بم دعا الله ؟ دعا الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دعي به أجاب ، وإذ سئل به أعطى » رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

٣ – عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم

قال : اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم »(البقرة : ١٦٣). وفاتحة آل عمران « ألم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

٤ – عن سعد بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « هل أدلكم على اسم الله الأعظم ، الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ؟ الدعوة التي دعا بها يونس ، حيث نادى في الظلمات الثلاث : لا إله إلا أنت ، سبحانك ، إني كنت من الظالمين » فقال رجل : يا رسول الله هل كانت ليونس خاصة ، أم للمؤمنين عامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا تسمع قول الله عز وجل : فنجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين » (الأنبياء : ٨٨) رواه الحاكم .

فأنت ترى من هذه الأحاديث ومن غيرها ، أنها لم تعين الاسم الأعظم بالذات ، وأن العلماء مختلفون في تعيينه ، لاختلافهم في ترجيح الأحاديث بعضها على بعض، حتى اختلفوا على نحو الأربعين قولاً. والذي نأخذه من هذه الأحاديث الشريفة ، ومن أقوال الثقات من رجال الملة ، أن الاسم الأعظم دعاء مركب من عدة أسماء من أسمائه تعالى ، إذا دعا به الانسان ، مع توفر شروط الدعاء المطلوبة شرعاً ، استجاب الله له ، وقد صرحت به الأحاديث الشريفة في عدة مواضع .

وإذا تقرر هذا ، فما يدعيه بعض الناس من أنه سر من الأسرار ، يمنح لبعض الأفراد ، فيفتحون به المغلقات ، ويخرقون به العادات ، ويكون لهم به من الخواص ما ليس لغيرهم من الناس ، أمر زائد على ما ورد عن الله ورسوله . وإذا احتج هؤلاء البعض بالآية الكريمة ، وهي قوله تعالى : « قال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » (النمل : ٤٠). على القول

بأن معنى : « عنده علم من الكتاب » أنه اسم الله الأعظم ، نقول لهم : قد صرح المفسرون بأن ذلك المدعو به كان « ياحي ياقيوم » أو : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم ». وادّعى بعضهم : أنه سرياني، لفظه (آهيا شراهيا)، وهي دعوى بغير دليل ، فلم يخرج الأمر عما ورد في الأحاديث الصحيحة .

وخلاصة البحث : إن بعض الناس ولعوا بالمعمّيات، وادعاء الخصوصيات، والزيادة في المأثورات ، فقالوا ما لم يرد في كتاب ولا سنة ، وقد نهينا عن ذلك نهياً شديداً ، فلنقف مع المأثور . ا هـ كلام الأستاذ رحمه الله .

* * *

والآن وقد استعرضنا تسع ظواهر كونية ، كل ظاهرة تدلنا على الله من وجه ، واستعرضنا دلالات الظواهر ، وأن كل ظاهرة ذكرناها أم لم نذكرها، تدل على اسم من أسماء الله ، وذكرنا بعضاً مما له علاقة بالأسماء والصفات والذات الإلهية كما وردت في الكتاب والسنة ، يبقى أن نقارن بين هذا المفهوم الصحيح عند المسلمين عن الذات الإلهية ، والمفاهيم الأخرى الخاطئة عند غيرهم ؛ ليتبين أن المسلمين وحدهم عرفوا الله حق المعرفة ، معرفة قائمة على العلم والعقل والبديهة ، لا تجد جانباً من جوانبها فيه مغمز، وذلك آية على أن هذا الاسلام دين الله ، وعلى أن محمداً رسول الله، أرسله الله ليرد الناس عن الباطل في كل شيء إلى الحق في كل شيء .

* * *

وقبل أن نبدأ المقارنة نحب أن نلخص بعض ما مر معنا في هذه الفقرة :

١ – إن ظواهر هذا الكون ، تدل على أسماء الله الحسنى ، وأسماؤه تدل على صفاته ، وصفاته تدلنا على ذاته .

٢ ـ مما تدلنا عليه ظواهر الكون ، أن الله عز وجل متصف : بالعلم ، والإرادة ، والقدرة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والوحدانية ، والبقاء ، والأولية ، والقيومية ، والمخالفة للحوادث وأن من أسمائه : المذل المعز ، الرزاق ، المعطي ، المنعم ...

٣ ـ ونظرة إلى ما وصف الله عز وجل به ذاته ، أو سماه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، ترينا انطباق ما دلتنا عليه الظواهر بدلالة العقل ، على مـــا دلنا عليه النص مع زيادة في النص ، تصعد بقولنا إلى منتهى الكمال والأدب ، ودين يأخذ بيد العقل في هذا الموضوع إلى مثل هـذه الذروة ، لا يبقي عند الانسان شكاً بأنه وحي .

٤ ـ وفي كل ما مر، آية على أن المسلم في هذا الموصوع وغيره ـ لأنه فرع عنه ـ قد اجتمع له صواب العقل ، وصفاء الفهم ، وسلامة الوحي الذي يأخذ بيد العقل والفهم إلى الطريق السوي .

* * *

مقارنات

تحت عنوان « **العقيدة الإلهية** » كتب عباس محمود العقاد في كتابه « **حقائق الاسلام وأباطيل خصومه** » بحثاً ، قارن به العقيدة الاسلامية في « الله جل جلاله » مع عقيدة غير المسلمين في باب الألوهية ، والملاحظ أن المقارنة منصبة على بعض عقائد الفلاسفة ، وعلى العقائد الدينية في وضعها الذي صارت إليه كما يفهمه أهلها زمن الرسالة الاسلامية ، لا كما هي في أصولها عند الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أصحاب هذه الرسالات — إن كانت في الأصل عن رسل — إذ أننا نعتقد أن موسى وعيسى وكل رسول لله عقيدتهم في الذات الإلهية هي نفسها عقيدة سيدنا محمد ﷺ إذ كلهم رسول لرب واحد ، ولكن هذه العقيدة حرفت وبدلت بعده ، كما حرف وبدل غيرها ، فأصبحت تحتاج إلى تصحيح ، فكانت رسالة محمد ﷺ هذا التصحيح الكامل ، فالانحراف الكامل في تصور الذات الإلهية في العالم كله من ناحية ، والتصحيح الكامل لهذا الانحراف من ناحية ثانية ، دليل على أن رسالة محمد ﷺ من عند الله . ونحن هنا لن ننقل بحث العقاد كله ، وإنما سنختار منه ، مع ملاحظة أن ما ننقله هو كلامه نفسه ، وكل تعليق في أسفل الصحيفة من كلامنا . **يقول العقاد** :

العقيدة الإلهية

العقيدة في الإله رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها . من عرف عقيدة قوم في إلههم فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان ، ومن صحة المقاييس التي يقاس بها الخير والشر ، وتقدر بها الحسنات والسيئات . فلا يهبط دين وعقيدته في الإله عالية ، ولا يعلو دين وعقيدته في الإله هابطة ، ليست مما يناسب صفات الموجود الأول الذي تتبعه جميع الموجودات .

ولقد كان النظر في صفات الله ، مجال التنافس بين أكبر العقول من أصحاب الفلسفة الفكرية وأصحاب الحكمة الدينية ، وقد كانت مهمة الفلاسفة أيسر من مهمة حكماء الأديان ، لأن الفيلسوف النظري ينطلق في تفكيره وتقديره غير مقيد بفرائض العبادة وحدود المعاملات التي يتقيد بها الحكيم الديني، ويتقيد بها من يأتمون به من أتباعه في الحياة العامة والمعيشة الخاصة ، فظهر بين الفلاسفة النظريين من سما بالتنزيه الإلهي صُعُداً إلى أوج لا يلحق به الخيال ، فضلاً عن الفكر والإحساس .

وجاء الاسلام من جوف الصحراء العربية بأسمى عقيدة في الإله الواحد الأحد، صححت فكرة الفلسفة النظرية كما صححت فكرة العقائد الدينية ، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين – في جانب النقص منهما – أعظم المعجزات التي أثبتت له في حكم العقل المنصف والبديهة الصادقة أنه وحي من عند الله .

يقال على الإجماع : إن صفات الإله قد ارتفعت إلى ذروتها العليا من التنزيه والتجريد[1] في مذهب « أرسطو » الفيلسوف اليوناني الكبير .

والذين يرون هـذا الرأي لا ينسون مذهب « أفلوطين » إمام الفلسفة الأفلاطونية الحديثة وشيخ الفلسفة الصوفية بين الغربيين إلى العصر الأخير . غير أنهم لا يذكرونه في معرض الكلام على التنزيه في وصف الله ؛ لأن مذهبه أقرب إلى الغيبوبة الصوفية منه إلى التفكير الجلي والمنطق المعقول ، وطريقته في التنزيه أن يمعن في الزيادة على كل صفة يوصف بها الله ، فلا يزال يتخطاها ثم يتخطاها كلما استطاع الزيادة اللفظية ، حتى تنقطع الصلة بينها وبين جميع المدلولات المفهومة أو المظنونة ، ويرجح الأكثرون أن « أفلوطين » نفسه لم يكن يتصور ما يصوره من تلك الصفات ، وإنما كانت غايته القصوى أن يذهب بالتصور إلى منقطع العجز والإعياء .

فمن ذلك أنه ينكر صفة الوحدانية ؛ ليقول بصفة الأحدية ، ويقول : إن الواحد غير الأحد[2] ؛ لأن الواحد قد يدخل في عداد الاثنين والثلاثة والعشرة، ولا يكون الأحد إلا مفرداً بغير تكرار .

ومن ذلك أنه ينكر صفة الوجود ليقول: إن الله لا يوصف بأنه موجود، تنزيهاً له عن الصفة التي يقابلها — العدم — وتشترك فيها الموجودات أو الموجدات .

لهذا يضربون المثل بأرسطو في تنزيه الإله ، ولا يضربون المثل بأفلوطين ؛ لأن مذهبه ينقطع في صومعة من غيبوبة الذهول ، لا تمتزج بحياة فكرية ولا بحياة عملية .

---

(١) هذا من حيث الدعوى لا من حيث الحقيقة كما يبينه العقاد بعد .

(٢) المسلمون يقولون : بالأحدية والواحدية؛فالله واحد أحد «وإلهكم إله واحد». « قل هو الله أحد » .

ومذهب أرسطو في الإله أنه : كائن أزلي، أبدي، مطلق الكمال ، لا أول له ولا آخر ، ولا عمل له ولا إرادة . مذ كان العمل طلباً لشيء ، والله غني عن كل طلب ، وقد كانت الإرادة اختياراً بين أمرين ، والله قد اجتمع عنده الأصلح الأفضل من كل كمال ، فلا حاجة به إلى الاختيار بين صالح وغير صالح ، ولا بين فاضل ومفضول . وليس مما يناسب الإله في رأي أرسطو أن يبتدىء العمل في زمان ؛ لأنه أبدي سرمدي لا يطرأ عليه طارىء يدعوه إلى العمل ، ولا يستجد عليه من جديد في وجوده المطلق بلا أول ولا آخر ، ولا جديد ولا قديم ، وكل ما يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه التي لا بغية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها ، ولا تخرج من نطاقها عناية تعنيه .

فالإله الكامل المطلق الكمال ، لا يعنيه أن يخلق العالم ، أو يخلق مادته الأولى وهي « الهيولى » ... ولكن لهذه « الهيولى » قابلية للوجود ، يخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى الوجود الذي يفيض عليها من قبل الإله ، فيدفعها هذا الشوق إلى الوجود ، ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع في حدودها ، فتتحرك وتعمل بما فيها من الشوق والقابلية ، ولا يقال عنها: إنها من خلقة الله إلا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار .

كمال مطلق لا يعمل ولا يريد .

أو كمال مطلق يوشك أن يكون هو والعدم المطلق على حد سواء ...

ولنذكر أنه أرسطو صاحب هذا المذهب قبل كل شيء [1] .

ولنذكر أنه ذلك العقل الهائل الذي يهابه من يحس قدرته ، فلا يجترىء

---

(١) أرسطو وغيره في معرفة حقائق الوجود أطفال إذا قيسوا بالرسل عليهم الصلاة والسلام .

عليه بالنقد والتسفيه ، قبل أن يفرغ جهده في التماس المعذرة له من جهــل عصره وقصور الأفكار حوله ، لا من جهله هو أو قصور تفكيره ؛ فإنـه لم يعودنا في تفكيره احتمالاً قط لا يتقصاه إلى قصارى مـداه ، ولا يستوفي مقتضياته وموانعه جهد ما في الطاقة الانسانية من استيفاء .

لنذكر أنه أرسطو ؛ لكي نذكر أن هذا العقل النادر ، لم يؤت من نقص في تصور الصفات العلوية ؛ إلا لأنه عاش في زمان ، لم تتكشف فيه المعرفة عن خصائص هذه الكائنات الأرضية « السفلى » التي نحسها ونعيش بينها ، ولو أنـــه عرف ماهو لاصق بها من خصائصها وأعراضها ، لكان له رأي في الكمال العلوي غير ذلك الرأي الذي ارتآه بمحض الظن والقياس على غير مقيس[1] .

لقد كان يفهم من كمال الكائنات العلوية — السماوية — أنهـــا خالدة باقية لاتفنى ؛ لأنها من نور والنور بسيط لايعرض له الفناء كما يعرض على التركيب .

ولو أن أرسطو عاش حتى علم أن المادة الأرضية — السفلى — كلها من نور ، وأن عناصر المادة كلها تؤول إلى الذرات والكهارب ، وأن هـــذه الذرات والكهارب تنشق ، فتؤول إلى شعاع ؛ لما ساقه الظن والقياس إلى ذلك الخطأ في التفرقة بين لوازم البقاء ولوازم الفنـــاء ، أو بين خصائص البساطة وخصائص التركيب .

ولعل إدراكه لذاك الخطأ في فهم لوازم البساطة والكمال ، ولوازم البقاء والفناء ، كان خليقاً أن يهديه إلى فهم خطئه في تصور لوازم الكمال الإلهي ، فـلا يمتنـع في عقله أن يجتمع الكمال الواحد من صفات عدة كالصفات الحسنى الـــتي

---

(١) إذا كان أرسطو المعلم الأول كما يقولون على مثل هـــذا الجهل؛ فكيف يخطر ببال بشر أن يترك اتباع الرسل لسفاهات ومتاهات غيرهم .

وصف بها الإله في الاسلام ، ومنها الرحمة والكرم والقدرة والفعل والإرادة ، ولايمتنع في عقله أن يكون لهذه الصفات لوازمها ومقتضياتها ، إذ لا تكون قدرة بغير مقدور عليه ، ولايكون كرم بغير إعطاء ، ولاتكون مشيئة بغير اختيار بين أمرين ، وإذا اختار الله أمراً فهو لايختاره لذاته سبحانه وتعالى ، بل يختاره لمخلوقاته التي تجوز عليها حالات شتى لا تجوز في حق الإله ، وإذا خلق الله شيئاً في الزمان فلا ننظر إلى الأبدية الإلهية بل ينبغي أن ننظر إلى الشيء الموجود المخلوق في زمانه ، ثم لا مانع عقلاً من أن تتعلق به إرادة الله الأبدية على أن يكون حيث كان في زمن من الأزمان .

لقد كان مفهوم البساطة الأبدية الباقية عند أرسطو ، غير مفهومها الذي لمسناه اليوم لمساً في هذه الكائنات الأرضية — السفلية — فلا جرم يكون مفهوم الكمال المطلق عندنا ، غير مفهومه الذي جعله أرسطو أشبه شيء بالعدم المطلق ، غير عامل ولا مريد ولا عالم بسوى النعمة والسعادة . . قانع بأنه منعم سعيد .

وعلى هذا يبقى لنا أن نسأل : هل استطاع أرسطو بتجريده الفلسفي أن يسمو بالكمال الأعلى فوق مرتبته التي يستلهمها المسلم من عقيدة دينه ؟

نقول عن يقين : كلا ؛ فإن الله في الاسلام إله صمد لا أول له ولا آخر ، وله المثل الأعلى ، فليس كمثله شي ، وهو محيط بكل شيء .

ثم يبقى بعدذلك أن نسأل : هل تغض العقيدة الدينية من الفكرة الفلسفية في مذهب التنزيه ؟

والجواب : كلا ، بل الدين هنا فلسفة أصح من الفلسفة إذا قيست بالقياس الفلسفي الصحيح ؛ لأن صفات الإله التي تعددت في عقيدة الاسلام لا تعدو أن تكون نفياً للنقائص التي لاتجوز في حق الإله ، وليس تعدد النقائص مما يقضي

بتعدد الكمال المطلق الذي ينفرد ولا يتعدد. فإن الكمال المطلق واحد ، والنقائص كثيرة ينفيها جميعاً ذلك الكمال الواحد . وما إيمان المسلم بأن الله عليم قدير فعال لما يريد كريم رحيم ، إلا إيماناً بأنه جل وعلا قد تنزه عن نقائص الجهل والعجز والجحد والغشم ، فهو كامل منزه عن جميع النقائص ، ومقتضى قدرته أن يعمل ويخلق ، ويريد لخلقه ما يشاء ، ومقتضى عمله وخلقه أن يتنزه عن تلك « العزلة السعيدة » التي توهمها أرسطو مخطئاً في التجريد والتنزيه . فهو سعيد[1] بنعمة كماله ، سعيد بنعمة عطائه ، كفايته لذاته العلية لاتأبى له أن يفيض على الخلق كفايتهم من الوجود في الزمان ، أي من ذلك الوجود المحدود الذي لا يغض من وجود الله في الأبد بلا أول ولا آخر ولا شريك ولا مثيل .

ومن صفات الله في الاسلام ، ما يعتبر رداً على فكرة الله في الفلسفة الأرسطية ، كما يعتبر رداً على أصحاب التأويل في الأديان الكتابية وغير الكتابية .

فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها ، ويتنزه عن الإرادة لأن الإرادة طلب في رأيه ، والله كمال لا يطلب شيئاً غير ذاته ، ويجل عن علم الكليات والجزئيات ، لأنه يحسبها من علم العقول البشرية ، ولا يعني بالخلق رحمة ولا قوة .. لأن الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعي إليه . ولكن الله في الاسلام عالم الغيب والشهادة .

« وما يعزُب عن ربك من مثقال ذرة »	(سورة يونس : ٦١)
« وهو بكل خلق عليم »	(سورة ياسين : ٧٩)
« وما كنا عن الخلق غافلين »	(سورة المؤمنون : ١٧)
« وسع ربنا كل شيء علماً »	(سورة الأعراف : ٨٩)

---

(١) إطلاق لفظ السعادة على الله إطلاق فلسفي لم يستعمل ولا يستعمل في المصطلح الاسلامي .

« ألا له الخلق والأمر » (سورة الأعراف: ٥٤)

« عليمٌ بذات الصدور » (سورة فاطر : ٣٨)

وهو كذلك مريدٌ وفعال لما يريد .

« وقالت اليهودُ: يدُ الله مغلولةٌ، غُلّت أيديهم ولُعِنُوا بما قالوا ؛ بل يداهُ مبسوطتان » (المائدة : ٦٤) .

وفي هذه الآية رد على يهود العرب بمناسبة خاصة تتعلق بالزكاة والصدقات، كما جاء في أقوال بعض المفسرين ، ولكنها ترد على كل من يغلّون إرادة الله على وجه من الوجوه ، ولا يبعد أن يكون في يهود الجزيرة من يشير إلى رواية من روايات الفلسفة الأرسطية بذلك المقال .

وقد أشار القرآن الكريم إلى الخلاف بين الأديان المتعددة فجاء فيه من (سورة الحج : ١٧) .

: « إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد » .

وأشار إلى الدهريين فجاء في سورة « الأنعام : ٢٩ ». « وقالوا : إنْ هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » . وجاء فيه من سورة « الجاثية : ٢٤ » . « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون » .

فكانت فكرة الله في الاسلام ، هي الفكرة المتممة لأفكار كثيرة موزعة في هذه العقائد الدينية وفي المذاهب الفلسفية التي تدور عليها ؛ ولهذا بلغت المثل

الاعلى في صفات الذات الإلهية ، وتضمنت تصحيحاً للضمائر وتصحيحاً للعقول في تقرير ما ينبغي لكمال الله ، بقسطاس الإيمان وقسطاس النظر والقياس .

ومن ثمّ كان فكر الانسان من وسائل الوصول إلى معرفة الله في الاسلام، وإن كانت الهداية كلها من الله .

ومجمل ما يقال عن عقيدة الذات الإلهية التي جاء بها الاسلام : أن الذات الإلهية غاية ما يتصوره العقل البشري من الكمال في أشرف الصفات . وقد جاء الاسلام بالقول الفصل في مسألة البقاء والفناء . فالعقل لا يتصور للوجود الدائم والوجود الفاني صورة أقرب إلى الفهم من صورتيها في العقيدة الاسلامية ، لأن العقل لا يتصور وجودين سرمديين ، كلاهما غير مخلوق ، أحدهما مجرد والآخر مادة ، وهذا وذاك ليس لهما ابتداء وليس لهما انتهاء .

ولكنه يتصور وجوداً أبدياً يخلق وجوداً زمانياً، أو يتصور وجوداً يدوم، ووجوداً يبتدىء وينتهي في الزمان .

وقديماً قال أفلاطون - وأصاب فيما قال -: إن الزمان ليس محاكاة للأبد.. لأنه مخلوق والأبد غير مخلوق .

فبقاء المخلوقات بقاء في الزمن ، وبقاء الخالق بقاء أبدي سرمدي لا يحده الماضي والحاضر والمستقبل ، لأنها كلها من حدود الحركة والانتقال في تصور أبناء الفناء ، ولا تجوز في حق الخالق السرمدي حركة ولا انتقال .

فالله هو « الحي الذي لا يموت » (سورة الفرقان : ٥٨) .

« وهو الذي يحيي ويميت » (سورة المؤمنون: ٨٠) .

و « كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ » (سورة القصص : ٨٨) .

وأياً كان المرتقى الذي ارتفع إليه تنزيه الفكرة الإلهية في مذهب أرسطو

كما شرحناه ببعض الشرح ، أو مذهب أستاذه أفلاطون كما أومأنا إليه ببعض الإيماء ، فهذا التنزيه الفلسفي [1] كاد أن يكون خيالاً جامحاً بالنسبة إلى العقائد الإلهية التي كانت فاشية بين الكهان والمتعبدين من أبناء اليونان .

فلا شك أن صورة « جوبيتر » رب الأرباب عندهم ، كانت أقرب إلى صورة الشيطان منها إلى صورة الأرباب المنزهين ، ولو لم يبلغ وصف التنزيه عندهم نصيباً ملحوظاً من الكمال .

كان « جوبيتر » حقوداً لدوداً ، مشغولاً بشهوات الطعام والغرام، لا يبالي من شؤون الأرباب والمخلوقات إلا ما يعينه على حفظ سلطانه والتمادي في طغيانه، وكان يغضب على « أسقولاب » إله الطب ، لأنه يداوي المرضى فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية، وكان يغضب على « بروميثيوس » إله المعرفة والصناعة ، لأنه يعلّم الانسان أن يستخدم النار في الصناعة ، وأن يتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الأرباب ، وقد حكم عليه بالعقاب الدائم ، فلم يقنع بموته ولا بإقصائه عن حظيرة الآلهة ، بل تفنن في اختراع ألوان العذاب له ، فقيّده إلى جبل سحيق ، وأرسل عليه جوارح الطير تنهش كبده طوال النهار ، حتى إذا جن الليل عادت سليمة في بدنه ، لتعود الجوارح إلى نهشها بعد مطلع الشمس ... ولا يزال هكذا دواليك في العذاب الدائم مردود الشفاعة مرفوض الدعاء . ومما رواه الشاعر الفيلسوف « هزيود » عن علة غضب الإله على « بروميثيوس » أنه قسم له نصيبه من الطعام في وليمة الأرباب ، فأكثر فيه من العظام ، وأقل فيه من اللحوم والشحوم ، فاعتقد « جوبيتر » أنه يتعالم عليه بمعرفته وفطنته ، لأنه اشتهر بين الآلهة بمعرفة وافرة وفطنة نافذة ، لم يشتهر بها الإله الكبير . ولا يغيب عنا ونحن نروي أخبار الإله

(١) ومع ذلك كان ضرباً من التخبط والهذيان .

الكبير منقولة عن « هزيود » أن هذا الشاعر الفيلسوف ، قد اجتهد قصارى اجتهاده في تنزيه « جوبيتر » وتصويره للناس في صورة من القدامة والعظمة ، تناسب صورة الإله المعبود بعد ارتقاء العبادة شيئاً ما في ديانة اليونان الأقدمين .

ومما رواه الرواة المختلفون عن « جوبيتر » ، أنه كان يخادع زوجته «هيرة» ويرسل إله الغمام لمداراة الشمس في مطلعها ، حذراً من هبوب زوجته الغيرى عليه مع مطلع النهار ، ومفاجأته بين عشيقاته على عرش « الأولمب » .. وحدث مرة أنها فاجأته وهو يقبل ساقيه « جانيميد » راعي الضأن الجميل الذي لمحه في الخلاء ، فاختطفه وصعد به إلى السماء ... فلم يتنصل « جوبيتر » من تهمة الشغف بساقيه ، ومضى يسوّغ مسلكه لزوجته بما جهلته من لذة الجمع بين رحيق الكأس ورحيق الشفاه .

ومثل الأمم القديمة كمثل اليونان في بعد الفارق بين صورة الإله في حكمة الفلاسفة ، وبين صورته في شعائر الكهان والمتعبدين .

فالهند القديمة كانت تطوى هياكلها ومعابدها على طوائف من الأرباب : منها ما يلحق بالحيوان وعناصر الطبيعة ، ومنها ما يلحق بالأوثان والأنصاب ، وكثير منها يتطلب من سدنته أن يتقربوا إليه بالبغاء المقدس وسفك الدماء .

وقد انتهت هذه الأرباب المتعددة إلى الثالوث الأبدي الذي اشتمل على ثلاث من الصور الإلهية ، هي : الإله « براهما » في صورة الخالق ، والإله «فشنو» في صورة الحافظ ، والإله « سيفا » في صورة الهادم ... فجعلوا الهدم والفساد من عمل الإله الأعلى الذي يتولاه حين يتشكل لعباده في تلك الصورة . وزادوا على ذلك أنهم جعلوا لكل إله قريناً يسمونه « الشاكتي » أو الزوجة أو الصاحبة ينسبون إليها من الشرور ما ينزهون عنه قرينها أو صاحبها .

فهذه الأرباب صور لا تتباعد المسافة بينها وبين صور الشياطين والعفاريت

والأرواح الخبيثة المعهودة في أقدم الديانات ، فإذا ارتفعنا في معارج التنزيه والتجريد[1] بلغنا منها ذروتها العليا في صورتين مختلفتين: إحداهما صورة «الكارما» والصورة الأخرى «النرفانا» ، وكلتاهما تحسب من قبيل المعاني الذهنية ، وقل أن توصف بوصف الذات الإلهية . فالكارما هي القدر الغالب على جميع الموجودات ومنها الآلهة وأفلاك السماء ، وهذا القدر هو في الواقع حالة من الحالات العامة ، يمكن أن نعبر عنها بأنها هي « ما ينبغي » أو هي الوضع الحاصل على النحو الأمثل ، فليس القدر المسمى بالكارما عندهم ذاتاً إلهية معروفة الصفات ، ولكنه مرادف لكلمة « الانبغاء » أو كلمة « الواجب » كما وجب في الحوادث والموجودات .

والنرفانا حالة عامة كحالة الكارما ، إلا أنها إلى العدم أقرب منها إلى الوجود ، لأنها الحالة التي تنتهي إليها جميع الأرواح حين تفرغ من عناء الوجود ، وتتجرد من شواغل الأجساد وشواغل الأرواح على السواء ، وتتساوى أرواح الآلهة وأرواح البشر في حالة النرفانا هذه ، كلما سعدت بنعمة الخلود غير محسوس ولا مشهود .

ولسنا نريد في هذه الصفحات القليلة، أن نتتبع صورة الإلهية والربوبية كافة بين أمم الحضارات الأولى ، وإنما نجتزىء منها بالنماذج الدالة عليها فيما ارتقت إليه من التنزيه ، وفيما هبطت إليه من التجسيم أو التشبيه أو التشويه ، ولهذا يغنينا عن الاسترسال في شرح عادات الأقدمين أن نضيف إلى ما تقدم مثلاً آخر يتمم أمثلة اليونان والهند ، وذلك هو مثل الديانة المصرية القديمة من أبعد عهود الفراعنة

---

(١) عند ما يتحدث العقاد عن التنزيه والتجريد عند الأمم ، يقصد بذلك التنزيه والتجريد النسبيين اللذين وصل إليهما عقل الأمة في حالة من حالاتها ، لا التنزيه والتجريد كما ينبغي أن يكونا ، فذلك لم يعرفهما إلا المسلمون كما هو واضح من سياق كلامه .

إلى عهد الديانات الكتابية ، وهي – أي الديانة المصرية القديمة – أرفع الديانات فيما نعلم ترقياً إلى ذروة التوحيد والتنزيه ، وإن كانت في عبادتها الشائعة تهبط أحياناً إلى مهبط الديانات الغابرة من عبادة الطواطم والأنصاب ، وعبادة الأرواح الخبيثة والشياطين .

بلغت ديانة مصر القديمة ذروتها العليا من التوحيد والتنزيه في ديانة «آتون» التي بشر بها الفرعون المنسوب إليه « أخناتون » .

ويؤخذ من صلوات أخناتون المحفوظة بين أيدينا ، أنه كان يصلي إلى خالق واحد ، يكاد يقترب في صفاته من الإله الخالق الذي يصلي له العارفون من أتباع الديانات الكتابية ، لولا شائبة من العبادة الوثنية علقت به من عبادة الشمس ، فكانت هذه الشمس الدنيوية رمزاً له ومرادفاً لاسمه في معظم الصلوات .

* * *

هذه الشواهد من التاريخ القديم ، شواهد تمثيل لا شواهد حصر وتفصيل ، وهي مغنية في الدلالة على المدى الذي وصل إليه تنزيه الفكرة الإلهية في أمم التاريخ القديم جميعها ، لأنها تدل على ما وصلت إليه الفكرة الإلهية المنزهة في أرفع الحضارات الأولى ، وهي الحضارة المصرية والحضارة الهندية والحضارة اليونانية .

وجملة الملاحظات على تنزية الفكرة الإلهية عند الأقدمين ، أنه كان تنزيهاً خاصاً مقصوراً على الفئة القليلة من المفكرين والمطلعين على صفوة الأسرار الدينية .

ثم يلاحظ عليه بعد ذلك ، أنه تنزيه لم يسلم في كل آنة من ضعف يعيبه عقلاً ، ويجعله غير صالح للأخذ به في ديانات الجماعة على الخصوص .

ففي الديانة المصرية ، لم تسلم فكرة التوحيد من شائبة الوثنية ، ولم تزل عبادة الشمس ظاهرة الأثر في عبادة آتون .

وديانة الهند لم تعلم الناس الإيمان « بذات إلهية » معروفة الصفات، وليس في معبوداتهـا أشرف من الكارما والنرفانا ، وهما بالمعاني الذهنية أشبه منهما بالكائنات الحية ، وإحداهما – وهي النرفانا – إلى الفناء أقرب منها إلى البقاء .

والتنزيه الفلسفي الذي ارتقت إليه حكمة اليونان في مذهب أرسطو، يكاد يُلحق الكمال المطلق بالعدم المطلق ، ويخرج لنا صورة للإله لا تصلح للإيمان بها ولا للاقتناع بها على هدى من الفهم الصحيح .

وكل أولئك لا يبلغ بالتنزيه الإلهي مبلغه الذي جاءت به الديانة الاسلامية، صالحاً للإيمان به في العقيدة الدينية. وصالحاً للأخذ به في مذاهب التفكير .

والديانة الاسلامية – كما هو معلوم – ثالثة الديانات المشهورة باسم الديانات الكتابية ، مكانها في علم المقارنة بين الأديان مرتبط بمكان الديانتين الأخريين وهما الموسوية والمسيحية ، وتجري المقارنة بين الاسلام وبينهما فعلاً في كتابات الغربيين ، فلا يتورع أكثرهم من حسبان الاسلام نسخة مشوهة أو محرفـة من المسيحية أو الموسوية . .

والمسألة – بعد – مسألة نصوص محفوظة وشعائر ملحوظة ، لا تحتمـل الجدل الطويل في ميزان النقد والمقارنة ؛ وإن احتملته في مجال الدعوة والخصومة العصبية، ولا حاجة في المقارنة بين هذه الديانات إلى أكثر من ذكر العقيدة الإلهية في كل منها للعلم الصحيح بمكانها من التنزيه في حكم الدين وحكم المعرفة النظرية .

إن المراجع التي تلقينا منها عقائد العبريين كما يدين بها أتباع الديانة الموسوية إلى يومنا هذا ، مبسوطة بين أيدي جميع القادرين على مطالعتها في لغاتها الأصيلة

أو لغاتها المترجمة ، وأشهرها التوراة[1] والتلمود. فصورة الإله في هذه المراجع من أوائلها إلى أواخرها هي صورة (يهوا) إله شعب إسرائيل ...

وقد وصفوه في كتبهم المقدسة ، فقالوا عنه مرة : إنه يحب ريح الشواء ، وقالوا عنه مرة أخرى : إنه يتمشى في ظلال الحديقة ليتبرد بهوائها ، وقالوا عنه غير هذا وذاك . إنه يصارع عباده ويصارعونه ، وإنه يخاف من مركبات الجبال كما يخافها جنوده، وغبروا ردحاً من الدهر وهم يسوون بينه وبين عزازيل شيطان البرية ، فيتقربون إليه بذبيحة ، ويتقربون إلى الشيطان بذبيحة مثلها ....

وجمد العبريون على عقيدتهم الإلهية ، فظل « يهوا » إلهاً عبرياً ، يستأثر به أبناء يعقوب بن إسحاق ، ولا يرجو الخلاص بمعونة منه إلا الذين يدينون بالولاء لعرش داود وذريته من بعده، فلم يتغير هذا الاعتقاد بين العبريين قبل عصر الميلاد المسيحي، ولم يأت التغيير فيه من قبل أبناء إسرائيل المحافظين على عقيدتهم الأولى؛ بل أتى هذا التغيير من قبل المصلحين المجددين في الدين اليهودي ، وقام به من بينهم رسول مغضوب عليه في شرعتهم ، متهم بالمروق من زمرتهم ، وهو عيسى بن مريم صلوات الله عليه وسلامه .

وابتدأ عيسى بن مريم دعوته الأولى مختصاً بها بني إسرائيل دون سواهم من العالمين ، وذكرت لنا الأناجيل تفصيل الحوار الذي دار بين السيد المسيح وبين المرأة الكنعانية التي توسلت إليه أن يخرج الشيطان من ابنتها ، فروى إنجيل مرقص في الإصحاح السابع :

« أن امرأة بابنتها روح نجس ، سمعت به ، فأتت وخرت عند قدميه ،

---

(١) نصوص التوراة يلتزم بها اليهود والنصارى على السواء ، ولا يستحيي هؤلاء وأولئك أن يقارنوا عقيدتنا بعقيدتهم مع كل ما فيها من سفاسف كما سنرى ، بل يزيدون على ذلك أنهم يعتبرون عقيدتنا هابطة عن عقائدهم ، ثم يقال : إن لهؤلاء عقولاً !!.

وكانت المرأة أممية – أي من أبناء الأمم غير الإسرائيلية – وفي جنسها فينيقية سورية ، فسألته أن يخرج الشيطان من ابنتها ، وأما يسوع ، فقال لها :دعي البنين أولاً يشبعون ؛ لأنه ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب ، فأجابت وقالت له:نعم يا سيد ، والكلاب أيضاً تحت المائدة تأكل من فتات البنين ، فقال لها :لأجل هذه الكلمة ، اذهبي قد خرج الشيطان من ابنتك . . »

ورواية متى لهذه القصة تشبه رواية مرقص حيث جاء في الإصحاح الخامس عشر من الإنجيل المنسوب إليه :

إن السيد المسيح « خرج من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيداء ، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : ارحمني يا سيد يا ابن داود . ابنتي مجنونة جداً. فلم يجبها بكلمة. فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ، فأتت وسجدت له قائلة : يا سيد أعني . فأجاب وقال : ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب ، فقالت : نعم يا سيد . والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها، حينئذ أجاب يسوع وقال لها: يا امرأة. عظيم إيمانك ، ليكن لك كما تريدين . فشفيت ابنتها من تلك الساعة » .

ونحن نعلم من هذه القصة ومن جملة أخبار التلاميذ في الأناجيل ، أن السيد المسيح قد ثابر على اختصاص بني إسرائيل بدعوته ، ولم يتحول عنهم إلى غيرهم إلا بعد إصرارهم على رفضه ولجاجتهم في إنكار رسالته ، فوجد بعد اليأس منهم أنه في حل من صرف الدعوة عنهم إلى الأمم المقيمة بينهم ، وضرب المثل لذلك بصاحب الدار الذي أقام وليمة العرس في داره ، وأرسل الدعوة إلى ذويه وجيرانه ، فتعللوا بالمعاذير والشواغل ولم يستجيبوا لدعوته ،فأطلق غلمانه إلى أعطاف الطريق يدعون من يصادفهم من الغرباء وعابري السبيل ،على غير معرفة بهم ولا صلة بينه وبينهم ،

حتى امتلأت بهم الدار ولم يبق على الموائد مكان لمن اختصهم بالدعوة فأعرضوا عنها.

ويلاحظ في قصة المرأة الكنعانية أنها كانت تدعو المسيح بالسيد ابن داود ، وأن عقيدة العبريين لم تزل تعلق آمالهم بالخلاص على يد رسول من ذرية داود ومن سلالة يعقوب بن إسحق بن إبراهيم .

ومضى عصر المسيح ، وجاء بعده عصر بولس الرسول ، وعقيدة الخلاص الموقوف على سلالة إبراهيم الخليل باقية مسلمة بين العبريين الجامدين على تقاليدهم وبين المسيحيين المتحررين من تلك التقاليد ، وإنما أضيف إليها تفسير جديد لهذه البنوة ، وهو أنها بنوة روحية لاتتوقف على بنوة الجسد ، ولافارق فيها بين من يحيون سنة إبراهيم الخليل من العبريين أو من الأميين الذين يسميهم العبريون « بالجوييم » . . أي الأقوام الغرباء

فالعقيدة الإلهية كما دان بها العبريون ، وجمدوا عليها إلى عصر الميلاد ؛ إنما هي عقيدة شعب مختارين الشعوب في إله مختارين الآلهة[1]، وليس في هذه العقيدة إيمان بالتوحيد ، ولا هي مما يتسع لديانة إنسانية ، أو مما يصح أن يحسبه الباحث المنصف مقدمة للإيمان بالإله الذي يدعو إليه الاسلام .

ثم تطورت هذه العقيدة الإلهية بعد ظهور المسيحية ، فانتقلت من الإيمان بالإله لأبناء إبراهيم في الجسد ، إلى الايمان بالإله لأبناء إبراهيم في الروح ، وانقضى عصر السيد المسيح وعصر بولس الرسول ، واتصلت المسيحية بالأمم الأجنبية وفي مقدمتها الأمة المصرية ، فشاعت فيها على أثر ذلك عقيدة إلهية جديدة في مذهب العبريين ؛ وهي عقيدة الثالوث المجتمع من الآب والابن والروح القدس ،

---

(١) يشير العقاد هنا إلى كثير من النصوص التورانية التي تشعر القارىء بأن اليهود لايعتبرون الله رب العالمين ، بل هو ربهم فقط ، وللآخرين أربابهم ، وليس هذا طبعاً العقيدة الصافية التي دعا لها موسى عليه السلام وفصلتها التوراة قبل تحريفها .

وفحواها أن المسيح المخلص هو ابن الله، وأن الله أرسله فداء لأبناء آدم وحواء، وكفارة عن الخطيئة التي وقعا فيها عندما أكلا من شجرة المعرفة في الجنة بعد أن نهاهما عن الاقتراب منها .

وظهر الاسلام وفحوى العقيدة الإلهية كما تطورت بها الديانة المسيحية ، أن الله الإله واحد من أقانيم[1] ثلاثة هي: الآب والابن والروح القدس، وأن المسيح هو الابن من هذه الأقانيم، وهو ذو طبيعة إلهية واحدة في مذهب فريق من المسيحيين، وذو طبيعتين إلهية وإنسانية في مذهب فريق آخر .

ومن البديهي أن الباحث الذي يريد تطبيق علم المقارنة بين الأديان على المسيحية والاسلام ، مطالب بالرجوع إلى حالة الديانة المسيحية حيث ظهرت دعوة الاسلام في الجزيرة العربية ، فلا يجوز لأحد من هؤلاء الباحثين ، أن يزعم أن الاسلام نسخة محرفة من المسيحية ؛ إلا إذا اعتقد أن نبي الاسلام قد أخذ من المسيحية كما عرفها في بيئته العربية ، وفيما اتصل به من البيئات الأخرى حول جزيرة العرب . ومهما يكن من تطور العقائد المسيحية في سائر البيئات ومختلف العصور ، فالعقيدة المسيحية التي يجوز لصاحب المقارنة بين الأديان أن يجعلها قدوة للاسلام ، إنما هي عقيدة المسيحيين في الجزيرة العربية وما حولها ، وقد وصف « جورج سيل » مترجم القرآن إلى اللغة الانجليزية حالة المسيحيين في الحجاز وفي سائر الأنحاء القريبة منه ، فقال ما ننقله من ترجمة مقدمته للقرآن :

« إنه من المحقق أن ما ألم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الأحوال ...

---

(١) ١ + ١ + ١ = ١ هذا الكلام غير المعقول يعتبره المستشرقون أستاذاً لمثل هذا النص : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً . » (مريم : ٨٨ — ٩٥) .

في صدر المائة الثالثة للميلاد ، قد اضطر كثيرين من أنصارها أن يلجأوا إلى بلاد العرب طلباً للحرية ، وكان معظمهم يعاقبة ، فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة . وأهم القبائل التي تنصرت : حمير ، وغسان ، وربيعة ، وتغلب ، وبهراء ، وتنوخ ، وبعض طيء ، وقضاعة ، وأهل نجران ، والحيرة ... ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتدادفي بلاد العرب لزم عن ذلك — ولابد — أنه كان للنصارى أساقفة في مواضع جمة ، لتنظم بهم سياسةالكنائس ، وقد تقدم ذكر أسقف ظفار ، وقال بعضهم : كانت نجران مقام أسقف ، وكان لليعاقبة أسقفان ؛ يدعى أحدهما : أسقف العرب باطلاق اللفظ ، وكان مقامه باكولة — وهي الكوفة عندابن العبري، أوبلدة أخرى بالقرب من بغداد عندأبي الفداء — وثانيهما يدعى : أسقف العرب التغلبيين ومقامه بالحيرة . أما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريكهم » .

إلى أن يقول :

« أما الكنيسة الشرقية ، فإنها أصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوي مرتبكة بمناقشات لا تكاد تنقضي ، وانتقض حبلها بمحاكاة الأربوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع . على أن الذي ثبت بعد البحث أن كلًا من بدعتي النساطرة واليعقوبية ، كانت بأن تُدعَى اختلافاً في التعبير عن المعتقد ، أولى من أن تُدعَى اختلافاً في المعتقد نفسه ، وبأن تُدعَى حجة يتغلب بها كل من المتناظرين على الآخر ، أولى من أن تُدعَى سبباً موجباً لالتئام مجامع عديدة ، يتردد إليها جماعة القساوسة والأساقفة ، ويتحاككون ، ليعلي كل واحد منهم كلمته ، ويحيل القضايا إلى هواه . ثم إن نافذي الكلمة منهم وأصحاب المكانة في قصر الملك ، كان كل واحد منهم يختص نفراً من قواد الجيش أو من أصحاب الخطب ، يكون له عليهم الولاء ويتقوى بهم ، وبذلك صارت المناصب تنال

بالرشى ، والنصفة تباع وتشترى جهاراً . أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك دماسوس وأرسكينوس ، في المشاحنة على منصة الأسقفية – أي أسقفية روما – ما أفضى إلى احتدام نار الفتنة ، وسفك الدماء بين حزبيهما ... وكان أكثر ما تنشأ المناقشات من القياصرة أنفسهم ، ولا سيما القيصر قسطنطينوس ، فإنه إذ لم يقدر أن يميز بين صحيح الدين المسيحي وخرافات العجائز ، ربك الدين بكثير من المسائل الخلافية ... هذا ما كان عليه حال النصرانية في غير بلاد العرب . أما في بلاد هذه الأمة التي هي موضوع بحثنا ، فلم تكن خيراً من ذلك.. فكان في نصارى العرب قوم يعتقدون أن النفس تموت مع الجسد وتنشر معه في اليوم الآخر ، وقيل أن أوريجانوس هو الذي دس فيهم هذا المذهب ، وكم وكم من بدعة انتشرت في جزيرة العرب حتى لا نقول نشأت فيها !!

فمن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون بألوهية العذراء مريم [1] ويعبدونها كأنما هي الله ، ويقربون لها أقراصاً مضفورة من الرقاق يقال لها : كليرس ، وبها سمي أصحاب هذه البدع كليريين ... وفضلاً عن ذلك ، فقد اجتمع أيضاً في جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الأسماء ، لجأوا إليها هرباً من اضطهاد القياصرة ..»

كانت عقائد الفرق المسيحية في جزيرة العرب ، وفي العالم المترامي حول جزيرة العرب ، على هذا النحو الذي وصفه رجل متعصب على الاسلام ، لا يتهم بمحاباته ، ولا يظن به أنه يتجانف على المسيحية وهو قادر على مداراتها . ومن الواضح البيّن أن عقائد الفرق المسيحية على ذلك النحو ، لم تكن مما يغري

---

(١) أشار القرآن إلى هؤلاء بقوله :« وإذ قال الله يا عيسى بن مريم، أأنت قلت للناس : اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق » (المائدة : ١١٦).

بالإعجاب ، أو بما يدعو إلى الاقتداء . ومن الواضح البيّن أن موقف الاسلام ، كان موقف المصحح المتمم ، ولم يكن موقف الناقل المستعير بغير فهم ولا دراية.

فقد جاء الاسلام بالدعوة إلى إله منزه عن لوثة الشرك ، منزه عن جهالة العصبية وسلالة النسب ، منزه عن التشبيه الذي تسرب من بقايا الوثنية إلى الأديان الكتابية .

فالله الذي يؤمن به المسلمون ، إله واحد لم يكن له شركاء ، و « سبحانه عما يشركون » .

وما هو برب قبيلة ولا سلالة يؤثرها على سواها بغير مأثرة ، ولكنه هو « رب العالمين » خلق الناس جميعاً ليتعارفوا ويتفاضلوا بالتقوى ، فلا فضل بينهم لعربي على أعجمي ، ولا لقرشي على حبشي ، إلا بالتقوى .

: « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم » (سورة الحجرات : ١٣) .

وهو واحد أحد : « لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد »
(سورة الإخلاص : ٣ — ٤)

لا يأخذ إنساناً بذنب إنسان ، ولا يحاسب أمة خلفت بجريرة أمة سلفت ، ولا يدين العالم كله بغير ذنبه .

« ولا تزر وازرة وزر أخرى»[1] (سورة فاطر : ١٨) .

« تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » (سورة البقرة : ١٣٤) .

---

(١) أين هذا من عقيدتهم في إثم البشرية كلها لخطيئة آدم عليه السلام ؛ حتى يضطر الله في زعمهم الكاذب لإعدام ابنه . تعالى الله عما يصفون !!.

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » (سورة الإسراء : ١٥) .

ودينه دين الرحمـــة والعدل ، تفتتح كل سورة من كتابه : « باسم الله الرحمن الرحيم » .

« وما ربك بظلام للعبيد » (سورة فصلت : ٤٦) .

و « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » (سورة الحديد : ٣) .

« وسع ربي كل شيء علماً » (سورة الأنعام : ٨٠) .

« وهو بكل خلق عليم » (سورة يس : ٧٩) .

وللباحث في مقارنات الأديان ؛ أن يقول ما يشاء عن هـــذا الإله الواحد الأحد، رب العالمين، ورب المشرقين والمغربين ، إلا أن يقول: إنه نسخة مستمدة من عقائد عرب الجاهلية ، أو عقائد الفرق الكتابية التي خالطت عقائد الجاهلين ، على النحو الذي وصفه « جورج سيل » في مقدمته لترجمة القرآن الكريم ، فإن العقيدة الإلهية التي تستمد من تراث الجاهلين ؛ لن تكون لها صبغة أغلب من صبغة العصبيـــة ، ولامفخرة أظهر من مفاخر الأحساب ، ولن تخلو من لوثة الشرك ، ولا من عقابيل العبادات التي امتلأت بالخبائث ، وحلت فيها الرُّقى والتعاويذ محل الشعائر والصلوات .

ومعجزة المعجزات؛ أن الاسلام لم يكن كذلك ، بل كان نقيض ذلك في صراحة حاسمة جازمة ، لاتأذن بالهوادة ولا بالمساومة ، فما من خلة كانت أبغض إليه من خلة العصبية الجاهلية ، والمفاخرة الجاهلية ، والتناحر الجاهلي على فوارق الأنساب والأحزاب .

فمن صميم بلاد العصبية خرج الدين الذي ينكر العصبية .

ومن جوف بلاد القبائل والعشائر ، خرج الدين الذي يدعو إلى إله واحد

(١) إن مثل هذه التلفيقات لا يمكن أن تسري حتى على المغفلين إلا إذا أعماهم الحقد فسلبهم عقولهم .

« رب العالمين » ورب المشرق والمغرب ، ورب الأمم الإنسانية جمعاء ، بغير فارق بينها ؛ غير فارق الصلاح والإيمان .

على أن الباحثين الذين يصطنعون سمت العلم من علماء المقارنة بين الأديان في الغرب، يطلقون نعوتهم على الاسلام سماعاً - فيما يظهر - من مقرراتهم أو من مكروراتهم التقليدية، التي لايبدو منها أنهم كلفوا عقولهم جداً وحقاً ، أن تلم إلمامة واحدة بهذا الدين في جملة أو تفصيل .

ففي كتاب من أحدث الكتب عن أديان بني الانسان ، ألفه أستاذ الفلسفة في جامعة كبيرة ، يقول المؤلف المتخصص لهذه الدراسات - بعد الإشارة إلى السيف والعنف والاقتباس من النصرانية والصابئية والمجوسية -:

« إن محمداً أسبغ على الله - ربه - ثوباً من الخلق العربي ، والشخصية العربية ...[1] » .

ويقول المؤلف :

« إن الحقيقة التي أقررها هنا ، تتجلى للباحث كلما تقدم في دراسة هذا الدين العربي ، وهذه الشخصية الإلهية العربية » .

بهذا النعت التقليدي ينعت المؤلف إله الاسلام، بعد أن تقدم في دراسته على حد قوله ... فماذا كان عساه قائلاً لو أنه لم يسمع باسم الاسلام إلا على الإشاعة من بعيد ؟!

---

(١) لعله يكون أكثر إغراباً لو استشهد على ماذهب إليه بقوله تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » .

حسداً حُمِّلْتَهُ من أجلها وقديماً كان في الناس الحسد

لعله لم يكن بحاجة إلى التقدم وراء البسملة في سورة الفاتحة ؛ ليعلم أن المسلم يدين برب العالمين ، وأنه يصف ربه بالرحمة مرتين عند الابتداء بكل سورة من سور كتابه ...

ولعله كان يحسن المقارنة جداً ، وحقاً ، لو أنه قنع بهذه الصفة من صفات إله الاسلام ، وقارن بينها وبين دين الصفات التي يختارها غير المسلمين ، فـلا يذكرون الله في مفتتح دعواتهم بغير صفة القوة والجبروت .

فالله رب العالمين ، ملك يوم الدين ، لم يكن نسخة محرفة من صورة «الله» في عقيدة من العقائد الكتابية ـ كما زعموا ـ بل كان هو الأصل الذي يثوب إليه من ينحرف عن العقيدة في الإله ، كأكمل ما كانت عليه ، وكأكمل ما ينبغي أن يكون .

ومن ثمّ كانت هذه العقيدة الإلهية في الاسلام ، مصحّحة متمّمة لكل عقيدة سبقتها في مذاهب الديانات ، أو مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبية .

فهي عقيدة كاملة ، صححت وتممت عقيدة الهند في الكارما والنرفانا ؛ لأنها عقيدة في خواء ، أو فناء مسلوب الذات لاتجاوب بينه وبين أبناء الحياة .

وهي عقيدة كاملة ، صححت وتممت عقيدة المعلم الأول بين فلاسفة الغرب الأقدمين ؛ لأنه كان على خطأ في فهم التجريد والتنزيه ، ساقه هذا الخطأ إلى القول بكمال مطلق ؛ كالعدم المطلق في التجرد من العمل ، والتجرد من الإرادة ، والتجرد من الروح .

ودين يصحح العقائد الإلهية ، ويتممها فيما سبقه من ديانات الأمم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها ؛ تراه من أين أتى ، ومن أي رسول كان مبعثه ومدعاه ؟

من صحراء العرب .

ومن الرسول الأمي بين الرسل المبعوثين بالكتب والعبادات . .

إن لم يكن هذا وحياً من الله ، فكيف يكون الوحي من الله ؟!

لكن كيف كان في أخلاد المؤمنين بالوحي الإلهي حيث كان ، فما يهتدي رجل « أمي » في أكناف الصحراء إلى إيمان بالله ، أكمل من كل إيمان تقدم ، إلا أن يكون ذلك وحياً من الله . وإنه لحجر على البصائر والعقول ، أن تنكر الوحي على هذه المعجزة العليا ؛ لأنه لا يصدق عليها في صورة من صور الحدس أو الخيال . انتهى كلام العقاد .

* * *

وبعد : فمن العجيب الغريب المضحك المبكي ، أن نضطر لمقارنة عقيدة الاسلام في باب الربوبية ، مع سخافات البشر في هذا الباب !!

أليس عجيباً أن نقارن ديانة فيها مثل هذا النص :

« ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ؛ ما نفدت كلمات الله » (لقمان : ٢٧) .

بديانة تقول عن الله : بأنه يجامع ، أو يصارع خلقه ، ويكادون يغلبونه ، أو أن له ولداً ، أي وزوجة . مثل هـذا الكلام التافه يمكن أن يقارن به ذلك الكلام العظيم ؟!

إن أي نص عن الذات الإلهية في الاسلام تدرسه ، يدلك على أن هذاالنص لا يمكن أن يكون إلا من عند الله ذاته ، كلاماً أو وحياً .

ولكن ما العمل إذا ألف الناس العمى لدرجة أنهم لا يحبون معه الإبصار؟!

* * *

لقد درسنا ظواهر الكون ، فدلتنا على صفات الله ، فلما عدنا إلى كتاب الله ازداد الفهم عمقاً ، وأدركنا من أبعاد الموضوع أكثر ، ولا شك أنه لولا أننا

مسلمون ، قد استقرت في أذهاننا معرفة الله كأثر عن الوحي ، ما مرنا في هـذا البحث على مثل هـذا السير . فدين يأخذ بيد العقل على هـدى العلم ؛ ليدله على أن يربط الفروع بأصولها ، ويرجع بالأصول إلى مصدرها دين لا يمكن أن يكون إلا حقاً .

* * *

إن هناك ناساً لايسمعون ولايعقلون ولايفكرون ، عقائدهم سخيفة ، فإذا مادُعوا إلى مثل هذا الصفاء ، وإلى مثل هذا المنطق الحكيم ، رفضوه لأنهم درجوا على عقيدة خاطئة ، وألفوها دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث ، فهؤلاء كما قال الله عنهم : « إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم » (الزخرف : ٢٢) كل أصحاب عقيدة باطلة يقولون هذا . أفما ينبغي لهؤلاء أن يعيدوا النظر ؟! فالقضية ليست قضية خيار ؛ وإنما هي قضية مصير الانسان : إما إلى جنة ، أو إلى نار ستحرقهم مع آبائهم أبداً ، إن لم يهتدوا .

إن الوثنيين ، والمشبهين ، والمنتقصين ، والذين يعطون صفات الله لخلقه ، من غفران ذنب ، أوتفريج كرب ، أو إجابة دعاءأوتمجيد وتعظيم . إن الذين لم يعرفوا صفات الله العليا ، وأسماءه الحسنى ، ووجوده الكامل ، وهيمنته الدائمة ، وإمداده العظيم ، وتدبيره لشؤون خلقه ابتداءاً وانتهاءاً . إن الذين لايرون آيات الله في كل ما خلق . هؤلاء كلهم لايعرفون الله .

إننا نحن المسلمين فقط نعرف الله حق المعرفة ، وننزهه حق التنزيه ، ونعبده حق العبادة ، ومن قرأ الجزء الثاني والثالث من هـذا الكتاب ؛ سيرى حقاً عجباً ، لايمكن أن يكون ، لولا أن الله عز وجل ، هو الذي أوحى ، ويسر ، وأراد ما أراد لهذا الرسول وبهذا الدين .

فهرس

الموضوع	الصحيفة

الموضوع	الصحيفة